روايات رومانسية عالمية

عبير

ماري ويبرلي

السرّ الدفين

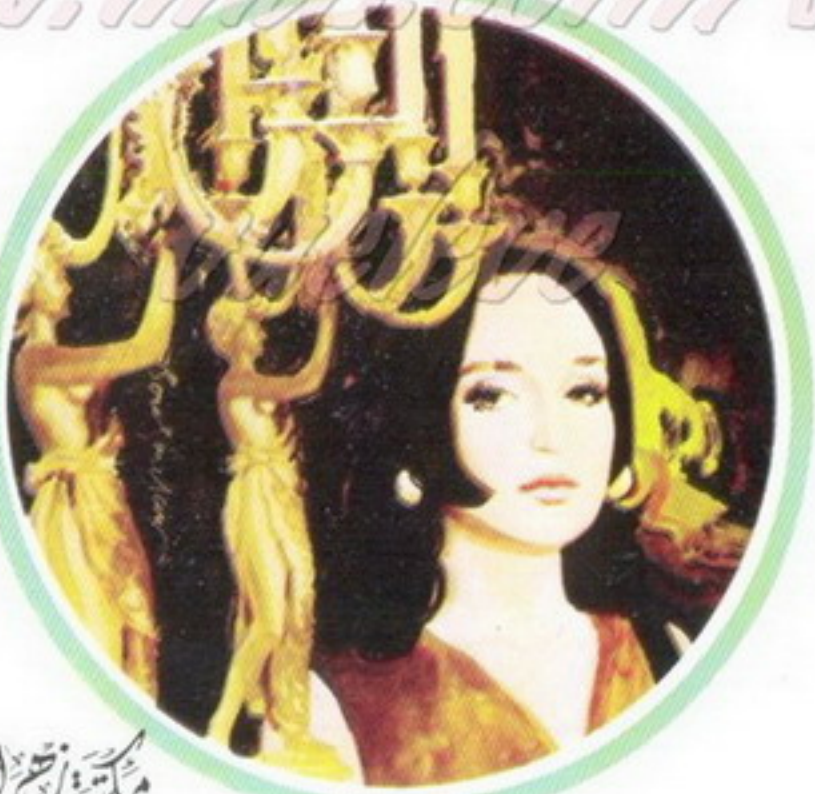

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية

عبير

السر الدفين

(الاباء
يأكلون الحصرم والابناء
يضرسون) .. ينطبق هذا المثل تماما
على قصه فانيسا التى اعتقدت ان جدها كان
السبب فى تعاسة والدها الراحل. ولم يكن هناك
عليها سوى ان تذهب متنكرة فى قناع فتاة استجابت
لاعلان يطلب فيه جدها من يرتب مكتبته المبعثرة.. غير
ان فانيسا تلتقى كال غرين ضيف جدها وصديقة,
وتكشف بين الصحف القديمة سر والدها الراحل..
فتحاول الهرب.. الهرب من الماضى والهرب من
كال الخشن القاسى, فهل يدور محرك
سيارتها فى تلك الليلة الباردة؟

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية - القاهرة
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت: ٥١٤٢٦٥٥ - موبايل: ٠١٢٣٧٨٦٤٧٨

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE SNOW ON THE HILLS

١ - غريبان على الطريق

اسقطت فانيسا مكعب السكر في فنجان القهوة وراحت تراقب فقاقيع الهواء التي احدثها. لا، لم يكن هذا مجرد خيال، فالشابان اللذان يركبان الدراجة النارية كانا يراقبانها باهتمام واضح.

انها معتادة على ذلك التصرف. لكن الأمر يختلف هذه المرة، فنظراتهما اشعرتها بالانزعاج. المقهى كان صغيراً. وخلف الآلة الحاسبة جلست فتاتان تقهقهان وتتهامسان. والى احدى الطاولات في الزاوية جلس رجل يحتسي فنجان قهوة. الى جواره كان الشابان. انهيا لتوهما تناول بعض السندويشات.

نظرت فانيسا الى الرجل الذي كان مستغرقاً في الصحيفة الموجودة الى جواره اكثر من اي شيء اخر. ماذا يمكن ان تقول اذا ما ذهبت اليه لتحادثه؟ من الأكيد انه سيعتبرها مجنونة. ولكنها كانت قلقة. فما تبقى من الطريق موحش ومنعزل، هذا ما تؤكده خريطتها ويؤكده الطريق الذي قطعته قبل قليل. هناك ما لا يقل عن ثلاثين ميلاً للوصول الى دينستون هاوس. ثلاثون ميلاً من القيادة في اراض جبلية منعزلة قبل ان تصل الى مقصدها!

التفت اليها الرجل لبرهة وكأنه احس بنظراتها، ثم نظر باتجاه الشابين واخيراً الى صحيفته. خفق قلب فانيسا بشدة. ليس هناك امل يرتجى منه. لعله اعتقد انها احبت تصرف الشابين اللذين اخذا الآن يصدران اصواتاً وكأنهما يتحدثان الى قطة، وهما يبتسمان، لقد اصبح طعم القهوة كريهاً. نهضت فجأة. حان وقت الذهاب، وكلما بكرت كلما كان افضل.

رأسها مصاب بالصداع منذ ان قطعت بيرث والطريق حتى دينستون هاوس - المنطقة المجهولة - طويلة وصعبة. ومن الأفضل لها ان تسرع في الوصول الى هناك. حملت سترتها وحقيبة يدها وغادرت المقهى دون ان تلتفت الى الخلف.

في الخارج، كان الطقس بارداً وبوادر غيوم ممطرة في السماء. التلال المرتفعة كانت تبدو منعزلة في ضوء المساء الخافت، وكل شيء هادىء. في موقف المقهى، شاهدت الدراجتين الناريتين وسيارة جاكوار انيقة وسيارتها الكورتينا الرمادية. جلست في مقعدها ورمت السترة وحقيبة اليد في المقعد المجاور... وادارت المحرك. فكرت انها ستكون سالمة اذا ما اقلعت وغادرت المكان قبل ان يخرج الشابان.

وما ان تحركت باتجاه الطريق حتى شاهدت باب المقهى يفتح، ورأت الشابين يقفان للحظة على العتبة فأعطيا ظلاً اسود انعكس على ضوء المقهى الساطع. ما زالا يضحكان. وبحركة غريزية اغلقت ابواب سيارتها من الداخل ثم ضغطت بكامل قوتها على دواسة البنزين.. فاستجابت الكورتينا على الفور.

نزلت الطريق المنحدر بأسرع ما يمكنها. ربما كانت السرعة غير كافية فالدراجات النارية قوية وسريعة جداً بالرغم من مظهرها المضحك. انطلقت الدراجتان الناريتان خلفها. واصابها شعور غريب بأن ما يحدث قد يكون عقاباً لها على الخطة المقصودة التي جاءت لأجلها.

لكن الآن ليس وقت محاسبة الذات، المهم ان تبقى في المقدمة، متقدمة على الشابين. وكل شيء سيكون على ما يرام. الطريق الاسفلتي يمتد كشريط ضيق متعرج، وفانيسا تتابعه بترقب وسرعة، ويداها الرطبتان متمسكتان بعجلة القيادة. لم تكن انسانة عصبية، وهي تعرف كيف تسيطر على نفسها. لكن شيئاً ما كان في نظرات الشابين، اللذين لم يتجاوزا العشرين من العمر، جعلها تشعر بالخوف.

فكرة خاطفة الحت على ذهنها عن الرجل الآخر الذي كان في المقهى. لقد كان جذاباً بشكل قاس وغامض و... وفجأة سمعت هدير صوت محركي الدراجتين خلفها تماماً، كان المنعطف قد حجبهما عنها. الآن اصبحا مرئيين... ويقتربان، شابان يبحثان عن المشاكل، يرتديان

سترتين جلديتين سوداوين على سروالين من الجينز. اصبحا اقرب. يا الله اين السيارة الأخرى، او اية سيارة اخرى؟

مر الأول مسرعاً فاهتزت السيارة بعنف. كان اسلوبهما فعالاً. تمهل الأول حتى وصلت السيارة الى منعطف ضيق فخفف سرعته بحيث اضطرت فانيسا بدورها الى تخفيف السرعة. في حين كان الثاني خلفها يمنعها من محاولة الرجوع. أحست فانيسا برغبة جامحة في ان تطلق لسيارتها العنان، لكنها ادركت ان ذلك لن يفيد. كانت الدراجة النارية ضخمة بحيث لا تؤثر بها السيارة، والطريق لا يسمح بالتجاوز. وسرعان ما حل الصمت عندما سكتت المحركات.

تلفتت حولها في محاولة يائسة للبحث عن سلاح. عبثت اصابعها المحمومة في حقيبة يدها، فاصطدمت بجسم دائري بارد... انه عطر بخاخ، القارورة صغيرة، لكنها افضل من لا شيء. كم من الوقت سيمر قبل ان يحطما الأبواب؟

اقترب الشاب الأول من النافذة ومسح الزجاج وهو يبتسم. كانت اسنانه متآكلة ووجهه مصاباً بحب الشباب... وفي عينيه رغبات تتجاوز سنوات عمره.

«ارجوكما، اتركاني لحالي».

كلمات لا معنى لها في هذا الموقف، اطلقتها كأنها ابتهال.

عندها، ومن حيث لم تتوقع، سمعت صوت منبه سيارة طويلاً وعالياً يأتي من الوراء. التفتت، قفز قلبها من شدة الارتياح. في الوقت المناسب تماماً. كانت سيارة الجاكوار التي تخص الرجل الغامض في المقهى الصغير، والسائق يطلق المنبه لأن دراجة الشاب الأول تغلق الطريق امامه. وفي اللحظة التي توجه فيها الشاب لازاحة دراجته. فتحت فانيسا الباب بسرعة. لم يكن الشاب يريد اي تدخل، بل يريد ان يفسح الطريق للجاكوار. وكان امام فانيسا ثوان معدودة. وبينما كانت تحاول الركض متجاهلة الشاب الثاني وذراعيه الممدودتين، ترجل سائق الجاكوار من سيارته واغلق الباب خلفه، وحاولت فانيسا ان تهدىء قدميها المرتجفتين عندما شاهدته متقدماً نحو سيارتها.

قالت له:

«ارجوك ساعدني... هذان الشابان...».

«اعرف. لقد شاهدتهما».

جاء صوته عميقاً. ربما كان صوتاً عذباً في الاوقات العادية، لكنه الآن غاضب ومنفعل. هذا ما لفت انتباه فانيسا للوهلة الأولى وهي تنظر اليه كوسيلة انقاذ. وسرعان ماادركت شيئاً اعاد الخوف الى نفسها. هو شخص واحد. وهما اثنان وقويان. ولا يبدو عليه انه قوي، بالرغم من انه طويل القامة وعريض المنكبين ويمشي واثق الخطوة. لقد لاحظت هذه الأمور كلها عندما دخل المقهى وهي في منتصف وجبتها، وقبل ان يبدأ الشابان تحرشاتهما. بدا عليه انه من النوع الذي يفضل تجنب المشاكل. لكنه لن يفعل ذلك الآن. او هل يفعل؟ هل يتركها وحيدة ويتابع رحلته؟

واخيراً تكلم. ازاح الشاب الأول دراجته بعيداً عن الطريق واضعاً اياها قرب سيارة فانيسا بحيث تستطيع الحاكوار ان تمر.

قال وهو يبتسم:

«هيا ايها الفتيان، اذهبا من هنا».

وقف الشاب الأول، وهو القائد على ما يبدو، في مكانه مباعداً بين ساقيه وواضعاً يديه على خصره في وقفة تحد.

«اسمع، لقد ازحت دراجتي عن الطريق فلماذا لا تتابع رحلتك، نحن لا نتعرض لك؟».

«كلا لكن هذه الشابة ترفض اعتراضكما لطريقها، وانا شخصياً لا الومها لذلك...».

لكنه لم يستطع اكمال جملته.

استدارت فانيسا نصف التفاتة لأن الشاب الثاني كان حتى ذلك الحين صامتاً، ولذلك شاهدته اولاً فصرخت:

«انتبه»...

ولكن تحذيرها لم يكن ضرورياً. كان الشاب يحمل زجاجة في يده، ولو انها اصابت هدفها لفقد الرجل الغامض وعيه. لحسن الحظ خابت الضربة. وراقبت فانيسا باعجاب مشوب بالدهشة كيف ان الرجل استطاع ان يقبض على معصم الشاب ويلويها بشدة مع انحناءة خفيفة من جسده هو. كان مدهشاً ان تراقب المعركة لأنها جرت كما لو في التصوير

السينمائي البطيء، وتشاهد وجه الشاب وقد علته الدهشة اذ سقطت الزجاجة من يده المتشنجة ثم تبعها هو في السقوط... هنا تدخل الشاب الأول وتقدم مهاجماً. وقالت فانيسا لنفسها: هذه هي النهاية. والتفتت لتبحث عن عصا او اي شيء للمساعدة.

حدث كل شيء باسرع مما تتصور وصل الشاب الأول مسرعاً نحو الرجل الغامض رافعاً قبضة يده للوصول الى وجه خصمه وواضعاً قوته كلها في هجومه. وشاهدته فانيسا وهو يقفز من فوق الرجل الذي انحنى قليلاً الى الخلف ثم عاد ليجلس على صدر الشاب بسهولة وسرعة.

ادركت فانيسا انه يتقن رياضة الجيدو. وعرفت الفرق بين مشاهدة اللعبة على شاشة التلفزيون وبين ما جرى الآن... انه الفرق بين الرياضة والواقع.

انتهى كل شيء. نفض سائق الحاكوار الغبار عن سترته وهو ينظر باشمئزاز الى الجسدين المرميين اللذين يحاولان الوقوف على اقدامهما. ثم خاطب فانيسا قائلاً:

«اصعدي الى سيارتك وتابعي السير. سأتبعك انا بسيارتي. هيا بنا بسرعة».

لم يكن هناك مجال للكلام. اطاعته من دون ان تتفوه بكلمة وادارت محرك السيارة بيدها المرتعشة. ثم هدأت قليلاً عندما ادركت انه هو الذي يجب ان يرتجف اذا ما كان هناك سبب لذلك، وليس هي.

على بعد خمسة اميال، وبالقرب من مفترق طرق، اعطى سائق السيارة اشارة ضوئية طالباً منها التوقف، ففعلت وترجلت من سيارتها. الشيء الأول الذي يجب ان تفعله هو ان تشكره.

اقترب منها، ودون ان يفسح لها المجال سألها بلهجة آمرة:

«ما اسمك؟».

فماتت كلمات الشكر على لسانها فوراً.

«فانيسا».

بدأت كلامها. لكنها لم تستطع ان تتذكر اسمها الثاني «آ... سميث».

قال بنغمة ساخرة وهو يرفع احد حاجبيه:

«يبدو انك تجدين صعوبة في تذكر اسمك الثاني!».

لمعت عيناها بالغضب لبرهة وقالت:

«انني مضطربة . . . كانت تجربة مخيفة».

«صحيح» وافق قائلاً: «حسناً يا آنسة سميث» مشدداً على كلمة سميث «انا لا انصحك بالسفر وحيدة في المستقبل. . . على الأقل في مثل هذه الأماكن. انت تعرفين المتاعب التي كنت ستواجهينها لو ان احداً لم يصل في الوقت المناسب؟».

ووجدت ان عرفانها له بالجميل بدأ يزول بسبب طبعه الحاد، لكنها تمسكت بالجملة الأخيرة التي نطق بها لتنطلق منها وتقول:

«نعم، وانا شاكرة لك ما فعلته من اجلي».

«عرفت في المقهى ما ينبغي فعله. وتبعتكم طول الطريق مع انني لم اكن اقصد هذه الناحية اساساً».

آه، لقد بدأ يترك تأثيراً غريباً عليها. كان من النادر ان تعجز عن ايجاد الكلمات المناسبة. ومن النادر ايضاً ان تجد رجلاً مغلقاً الى هذا الحد، كأنه لم يكن يراها على الاطلاق. كان طويل القامة بحيث سبب لها الازعاج، خاصة انها طويلة ايضا، ولم تتعود ان تنظر الى الأعلى لتخاطب الآخرين. معه اضطرت الى ذلك. فقد كان اطول منها، عريض المنكبين، اسمر الوجه، وذا عينين لامعتين بشكل غير عادي حتى خيل اليها انهما تسخران منها. . لكن هذا غير معقول!

وانهى كلامه قائلاً:

«فاما ان تحضري معك رفيقة طريق او ان تتعلمي بعض الكاراتيه».

«سأتسلم وظيفتي على بعد ثلاثين ميلاً».

اجابت برد حاسم بدا لها جافاً:

«ومن الصعب والحالة هذه ان احضر معي مربيتي، اليس كذلك؟ اما بالنسبة للكاراتيه، فقد كنت اعتبر الاسكتلنديين محبين للضيوف. . . لكني يجب ان اعيد التفكير بهذا يا سيد».

عليه ان يتقبل رأيها بالاسكتلنديين كما يشاء. بدأت اعصاب فانيسا تتوتر، وكلما اسرعت بمغادرة المكان، كان ذلك افضل لها.

«كال غرين يا آنسة سميث».

وشدد على نطق الاسم الذي يؤكد كونه اسكتلندياً.

«اليس من الأفضل لنا ان نواصل السير».

واستدارت نحو سيارتها وهي تقول:

«فالشابان. . .».

«سوف يستمران في البحث عن مفاتيح المحرك لمدة غير قصيرة بين الاشجار».

اجاب مبتسماً. ليس هناك ما يضحك، مجرد ابتسامة كشفت عن اسنان لامعة.

«وحتى لو وجداها، فسيندمان اذا ما حاولا اللحاق بنا».

ولم يكن متبجحاً، كان يقول الحقيقة. لم تستطع فانيسا ان تمنع الكلمات:

«من الجميل ان تكون واثقاً الى هذا الحد من نفسك».

ابتسمت ايضاً وهي تدرك تأثير ابتسامتها على الرجال. انها الابتسامة التي تسحر، ولكنها لم تسحره هو.

«هذا صحيح» ونظر اليها بكبرياء. «انك ذات مزاج عصبي يا آنسة، اليس كذلك؟ ربما كنت تفضلين ان أتركهما فيصيباني بالزجاجة؟»

«لم اقصد ذلك».

وبدأت تشعر بالارتباك. من يعتقد نفسه هذا الوحش المتعجرف؟

«قصدت. . .».

لكنها لم تكن متأكدة مما تقصده الآن. وانهت كلامها بنبرة حزن:

«يبدو انك تعتقد بأنها غلطتي».

نظر اليها مجدداً. تعبير غريب جداً مر للحظة على ذلك الوجه الأسمر الجذاب:

«الم يعلمك احد بأن تغضي طرفك الساحر عندما تكونين في بعض الاماكن؟».

«ماذا»؟ من الأكيد انه لم يفكر. . . «كيف تجرؤ على هذا القول؟ وماذا تقصد من ورائه؟».

وجهها في العادة ابيض اللون وناعم بشكل يتناقض مع شعرها الأسود، اما الآن فقد احمر خداها والتمعت عيناها البنيتان الغامقتان بشرارات الغضب.

«دعك من هذه الأقوال».

كان يتكلم بهدوء، وكأنه يخاطب طفلاً:

«لا تقولي لي انك لم تعطها نظرة تشجيع حتى ولو غير مقصودة».

ورفع يده مسترضياً عندما قال العبارة الأخيرة:

«لكنك لا تستطيعين تجنب الأمر، اليس كذلك؟ فأنت مدركة لجمالك انت كاذبة او مغفلة اذا انكرت ذلك - وكان يجب ان تعرفي انك ستسببين المتاعب بمجرد...».

«لن اقف هنا لحظة اخرى لاستمع الى اقوالك يا سيد غرين».

صرخت بانفعال واستدارت عائدة الى سيارتها.

«لست ادري من هو الأسوأ فعلاً. وداعاً».

خيم صمت ثقيل. لم ينبس ببنت شفة ولم يحاول ايقافها. ترى ما الذي كانت تتوقعه؟

نظرت في مرآة سيارتها تراقب الطريق خلفها وهي تنحدر مسرعة نحو هدفها. رأته يدخل السيارة بسهولة رغم ساقيه الطويلتين. لم يكن ينظر اليها، بل لم يكن مهتماً ابداً. زمت فانيسا شفتيها بغيظ. لقد كان شخصية بغيضة مع انه انقذها من وضع لا تحسد عليه. القت نظرة اخرى قبل ان تحجب الطريق سيارته عنها. شاهدت بصيص احتراق سيكارة من خلف الزجاج، انقبض قلبها، هل ينتظر فعلاً حتى يتأكد من عدم وجود اية مشاكل؟ هذا ممكن. لكن مع مواصلة السير، طغت افكار اخرى ملحة على ذهن فانيسا. افكار حول المكان الذي تقصده والاسباب التي دفعتها للقدوم.

حدث شيء غريب جداً قبل بضعة اميال من دينستون هاوس. توقفت للحظة حتى تراجع خريطتها وتتأكد من المنعطف الحاد الذي برز الى اليمين والذي يقود الى طريق يبدو وكأنه ينتهي الى جبل منعزل موحش. عليها ان تتأكد قبل ان تتابع سيرها، لئلا تجد نفسها في طريق لا يمكنها العودة منه الا بعد اميال عديدة. خاصة ان الظلام اصبح حالكاً، والغيوم الداكنة تطبق على الأرض منذرة بالمطر الغزير.

انه طريقها بالفعل. لقد اشرت على الخريطة بعناية في مكتب المحامي بعد تلقي التعليمات منه. لا يمكن ان تكون مخطئة، فالمنعطف الحاد هو

الدرب الذي يجب ان تسلكه. اعادت فانيسا الخريطة الى مكانها وتأكدت من خلو الطريق من السير ثم انعطفت يميناً. ومن بعيد، لاحت بشكل غير واضح سيارة تنهب الأرض على الطريق نفسه الذي تركته فانيسا قبل لحظات... وتساءلت فانيسا ما اذا كانت هذه السيارة هي سيارة الجاكوار. من الممكن ذلك، لكن الأمر مستبعد. ثم انشغلت عن التفكير بذلك «الفارس الأرعن» وهي تتجاوز منعطفاً حاداً ضيقاً برز امامها فجأة... وما هي الا دقيقة حتى كانت الجاكوار وراءها.

لم يكن امام فانيسا مجال كي تفسح له الطريق لتجاوزها. فالدرب المتعرج الضيق كان يجعلها حذرة وبطيئة. هل هو مستمر في ملاحقتها؟ ربما يريد ان يقول لها شيئاً؟ عند المنعطف التالي، وكان هناك متسع للتجاوز، اعطته اشارة كي يعبر. لكنه توقف، ولم يعد امامها الا التوقف.

انزلت زجاج شباك سيارتها. ترى ماذا يريد؟

«هل انت في الطريق الصحيح؟».

كان صوته عميقاً وهادئاً، وكأن شيئاً لم يحصل بينهما.

«نعم. اعتقدت انك تريد سؤالي عن شيء ما. انا متوجهة الى مكان يدعى دينستون هاوس...».

توقفت عن الكلام عندما لاحظت تعابير وجهه التي تنم عن الدهشة والاستغراب. ماذا حدث؟ ماذا قلت له؟

«انت ذاهبة الى دينستون؟» تساءل بدهشة. «لا تقولي لي انك الآنسة التي تريد تنظيم المكتبة هناك؟ يا الهي!».

وفعلت الكلمتان الاخيرتان فعلهما. فتحت فانيسا باب سيارتها ودفعته بقوة. ابتعد الرجل عن طريقها وهو يساعدها في امساك الباب. ترجلت ووقفت امامه متحدية...

«لقد سمعت ورأيت ما فيه الكفاية. انا لا اعرف ماذا ومن تكون، لكن المكان الذي اقصده لا يعنيك ابداً... وان كنت انقذتني من الشابين...».

لم يتركها تكمل كلامها. كان ينظر اليها وبسمة استغراب مشوبة بالدهشة على شفتيه:

«هدئي من روعك»، قاطعها بصوت صخري كملامح وجهه.

«فذلك لن يفيدك معي، ولن ينفعك ايضاً..».

«ايها الـ...».

«أرأيت ماذا قصدت؟ العينان تشرقطان غضباً، والوجنتان محتقنتان.. هدئي نفسك ايتها القطة المتوحشة وانصتي».

احست فانيسا بأن صدرها يكاد ينفجر وهي تحاول ضبط نفسها امام هذا المخلوق المجنون والمتعجرف. كم تتمنى ان تصفع ذلك الوجه القاسي!

«هذا افضل». لم يعرف كم كانت قريبة من الصفعة.. «لي كامل الحق بسؤالك عما اذا كنت ذاهبة الى دينستون، فأنا اعيش هناك حالياً».

نظرت فانيسا اليه للحظات. هذا غير معقول؟ هذا غير معقول! وقالت بصوت اكثر هدوءاً:

«المنطقة التي اقصدها ملك شخص يدعى السيد ماكلين، وحسب علمي هو يقيم..».

«انه يقيم وحيداً»، اجاب بنعومة. «انه يقيم وحيداً باستثناء الخدم ومدبري البيت. وانا حالياً.. ضيفه».

لم تلحظ فانيسا في ارتباكها تردد الرجل قبل الكلمة الأخيرة. من اين جاءت كل هذه التعقيدات؟ نظرت اليه. عليها ان تكون شديدة الحذر. فأشياء كثيرة اخذت تحدث فجأة. يجب ان تهدأ فذلك سيعطيها وقتاً للتفكير. لكنها ادركت انها لا تملك متسعاً من الوقت للتأمل والتفكير.

«لقد فهمت».

وحاولت ان تضع على شفتيها ابتسامة كبيرة. اثرت الابتسامة مؤقتاً. وعندما جاءت كلماته احست ان مخيلتها هي التي اوحت اليها بذلك.

«استغربت كثيراً في البداية لأن اسم الموظفة الجديدة حسب ما اعتقد هو» وفرك مقدمة جبينه باصبعيه وهو يحاول التذكر «اجل اسمها الآنسة كوليتز».

وقطع كلامه مبتسماً وكأنه يقول: «والآن ما هي الحقيقة؟».

وأعطتها الابتسامة الأخيرة وقتاً هي بأمس الحاجة اليه للاستعداد والاجابة.

«هذا صحيح» قالت موافقة «عندما اخبرتك ان اسمي هو سميث،

كنت ببساطة غير راغبة باعطاء اسمي الحقيقي لشخص غريب».

رفع احد حاجبيه وقال:

«بالطبع.. بالطبع». واضاف بصوت ناعم «انا لا الومك. هناك نوعيات غريبة من الناس اخذت تتردد على هذه المنطقة مؤخراً».

لكنها كانت متأكدة من انه لم يصدقها. الشيء الوحيد الذي فكرت فيه هو: هل من الضروري ان يصدقها؟

اتاحت فانيسا لنفسها بعض الراحة كي تقلب المشكلة من كافة جوانبها، عندما كانت تتبعه بسيارتها على الطريق الذي اخذ يضيق ويتعرج اكثر. قاد سيارته الجاكوار بروية آخذاً بعين الاعتبار عدم معرفتها المسبقة بالمكان. وكانت قيادته هادئة وماهرة بحيث تبعته فانيسا بثقة وارتياح.

اذن، هو ضيف في دينستون هاوس، لكن الى متى؟ احست بضيق.

وعاد الى ذاكرتها الحوار الذي جرى في مكتب السيد مورتون.

واتضحت لها الأمور بشكل لم تكن مستعدة له بعد. هي تعرف ان عليها التفكير في الأمر.. لكن ليس الآن، ليس الآن. والحت عليها صورة السيد مورتون القلق وهو يقول بصوت متوتر: «لا استطيع ان اوافق على الخداع بأي شكل من الأشكال!».

«لست اسألك الموافقة على اي شيء».

كانت فانيسا قادرة حتى على تذكر رنة صوتها انذاك: هادئة وعملية ومصممة على ازاحة اي اعتراض، لأنها حسمت امرها سلفاً.

«لكن الأمر يبدو لي..» ورفع السيد مورتون مجموعة اوراق، «وكأنك ذاهبة الى هناك لانتحال شخصية اخرى».

«لقد شرحت لك الوضع».

واعطته ابتسامة طويلة. لم يكن قادراً على مقاومة مثل هذه الابتسامة. وسمعته يسعل بارتباك، فأضافت:

«المسألة لن تستغرق طويلاً، مجرد اسبوع، ثم اخبره بالحقيقة. انها اشبه بـ.. لعبة». ورددت في سرها: «وليسامحني الله على هذه الكذبة».

لكن يجب ان لا يعرف أحد اسبابها الحقيقية، الرغبة في رؤية ذلك الرجل العجوز الذي دمر حياة والدها.. انه جدها اندرو ماكلين الذي انفق الألوف حتى الآن من اجل العثور على الولد الوحيد لأبنه المتوفي

حديثاً.

اعادتها الى الحاضر سيارة الجاكوار التي اخذت تخفف سيرها، فضغطت على الفرامل بسرعة. مر من امامها قطيع من الماشية متجهاً الى احدى التلال. عبرت الخراف المثقلة بالصوف متباطئة عبر الطريق العام، فأسرع الرجل بسيارته وتبعته فانيسا دون تردد. نظرت في مرآة سيارتها لحظة. كانت عيناها سوداوين وواسعتين. تساءلت في نفسها: هل اخطأت من الأساس في المجيء الى هنا؟ هل كان والدها سيوافق على ما تفعل؟ لن تستطيع ان تعرف ابداً. لقد كان السيد مورتون قلقاً للغاية من خطتها. وارتكب خطأ اساسياً عندما اخبرها بأنهم طلبوا منه ايجاد شخص مناسب - رجلاً كان او امرأة - لترتيب مكتبة دينستون هاوس.

«ها قد وجدتها». أجابت فانيسا ومرجة عارمة من الارتياح تجتاح جسمها:

«الا ترى؟ انا سأذهب. ستقول لهم انك وجدت شخصاً مناسباً، و...».

«وماذا سيحدث عندما تكشفين شخصيتك الحقيقية؟» قاطعها السيد مورتون بجفاء «كيف سأبدو انا آنذاك... المتآمر الشريك؟».

«كلا». وقفت فانيسا بحزم. «حذرتك اساساً، وانت تعرف جدية كلامي، من انك اذا ابلغت جدي...» ووقفت عند الكلمة الأخيرة باشمئزاز «اذا ابلغته بالعثور علي، فسوف ارحل على الفور. وتأكد من انك لن تجدني ابداً».

شعر المحامي العجوز بالحيرة. واحست هي بالأسف لوضعه. لكن الرغبة في الانتقام كانت اكثر قوة... وادركت انها ربحت...

اصبحت الآن فانيسا كوليتز، مع قصة حياة كاملة اعدتها لنفسها اذا ما سألها احد. ستذهب لرؤية المكان حيث ولد ابوها وامضى طفولته الأولى، وسترى الرجل الذي سمعت عنه الكثير من الكلمات القاسية. ستجعله يحبها ويتعلق بها، بعد ذلك ستخبره بشخصيتها الحقيقية وتراقب تعابير وجهه... ثم ستغادر منزله ولا تعود اليه ابداً. عندها ستعرف راحة البال، لأول مرة بعد ستين كاملتين من العذاب. فمنذ ستين اخبرها والدها وهو على فراش الموت قصة الرجل القاسي الظالم الذي طرده لأنه

اراد ان يتزوج الفتاة التي احب وليس تلك التي اختارها هو له. والآن، مات الأب والأم معاً. امها ماتت مكسورة القلب بعد قليل من وفاة زوجها. وجدها يتحمل المسؤولية كاملة...

شاهدت الرجل الذي يقود السيارة امامها وهو يؤشر لها للاتجاه يميناً داخل طريق محفوف بالأشجار الكثيفة، فتبعته. هذا الشخص استطاع الايقاع بها عندما سألها عن اسمها فخلال ثوان معدودة نسيت الشخصية التي يجب ان تتلبسها، وهذا ما يجب الا يتكرر ابداً. عليها ان تراقب كال غرين هذا الرجل الأسمر القوي الذي اعطاها انطباعاً بأنه يستطيع قراءة افكارها ايضاً.

كان الطريق ضيقاً. والأشجار العالية الكثيفة تظلل كل شيء بظلام طاغ لا يتغير. ماذا ستجد هنا؟ انها لا تملك صوراً فوتوغرافية يمكن ان تعطيها انطباعاً عن المكان. فقد اتلف ابوها كل ما يمكن ان يذكره بالماضي. وهي لا تعرف كيف سيكون مظهر جدها، وان كانت الصورة الخيالية التي تحملها عنه لا تسر القلب. عما قريب ستعرف كل شيء، وسينتهي زمن الخيالات والتوقعات.

عبرت بوابة حديدية واسعة بيضاء اللون. القسم الأول من الطريق مرصوف بالحجارة، ثم يأتي قسم معبد بحبيبات صغيرة من الحصى. اعطت سيارة كال غرين زموراً متقطعاً، فاعتقدت فانيسا انه يؤشر لانسان ما. لكنها شاهدت مجموعة من الأرانب الصغيرة تفر من وسط الممر. انفرجت شفتاها قليلاً. على الأقل هو لا يحب دهس الحيوانات، وهذه نقطة صغيرة لصالحه. انها لم تعجب به. وهذا الشعور كان متبادلاً، فتصرفاته معها عكست هذا الأمر. لقد كان فظاً، هكذا تخيلت. لم يكن من المناسب ان يكشف هويتها ويفسد خطتها، عليها ان تعامله بحذر بالغ خلال الأسابيع القليلة المقبلة، وبعد ذلك لا يعود يهم ابداً.

واخيراً شاهدت البيت. فامتلأ قلبها بالحزن العميق. اذن هذا هو بيت ابيها. كان جميلاً جداً بحجارته الرمادية البارزة ونوافذه الواسعة ورواقه ذي الأعمدة الرخامية. عدة درجات تؤدي الى الباب حيث الظلام الخفيف يغطي المدخل المسقوف. وعندما وقفا امام الباب انير البيت بضوء ساطع هو مزيج من الأبيض والأزرق.

اوقفت فانيسا محرك سيارتها. ولبرهة من الزمن احست برغبة عارمة في الهرب.

«هيا بنا الى الداخل».

وفتح الرجل باب سيارتها معيداً اياها الى ارض الواقع:

«ستمطر خلال دقائق. اين حقائبك؟».

«في الصندوق».

سحبت المفاتيح من محرك السيارة وناولتها له. اخذها وتوجه الى الخلف وفتح الصندوق وحمل حقيبتيها. كانت فانيسا محتارة بين الرغبة في شكره والانزعاج من الطريقة الباردة التي تناول فيها المفاتيح، كأنه فقد صبره معها واصبح غير مهتم بتبرير تصرفاته. حملت سترتها وحقيبة يدها، وقررت ان تترك الأمور على علاتها، على الأقل حالياً.

قادها الى المدخل عبر سلم حجري، ثم فتح باباً ضخماً.

«اهلاً بك في دينستون هاوس يا آنسة كوليتز».

كان من الصعب عليها ان تعرف معنى رنة صوته، لكنها اكيدة من غياب الترحيب الفعلي.

«شكراً لك يا سيد غرين».

قالت مبتسمة، بدأ التخفي الآن، فلقد فات اوان التراجع. وعليها ان تستمر في خطتها مهما كلف الأمر. هزت رأسها وكأنها تطرد التعب عن وجهها وسألت:

«ماذا علي ان افعل الآن؟».

«سأرشدك الى غرفتك اولاً فترتبين اغراضك، ثم نتناول العشاء».

«ولكن اليس من الأفضل لقاء السيد ماكلين قبل ان اصعد الى غرفتي؟».

رفع حاجبه الأسود قائلاً:

«الم اقل لك انه خارج البيت الليلة؟ سيعود ظهر غد على ما اعتقد. وحتى ذلك الوقت سأهتم انا بوجودك».

احست بنبرة سخرية في صوته. هذا خيالها بالطبع. لكنها لم تكن مرتاحة.

وتساءلت بنعومة:

«وماذا كان سيحدث لي لو لم اصادفك في الطريق».

«المشرفة على البيت وزوجها السيد والسيدة بانكس كانا سيهتمان بك».

رفع حقيبتيها وسار نحو السلالم المنتصبة في منتصف القاعة الكبيرة. وصلا الى ممر تغطيه النوافذ الزجاجية الملونة، وعلى الجانبين ثريات من الذهب والعنبر. وبينما هي سائرة الى جانب الرجل، اضاء البرق النوافذ فأحست بالخوف والغربة. لعلها ارتجفت، اذ لاحظت نظرته اليها قبل ان تهدأ.

«خائفة من العواصف؟».

سألها بعطف.. لو ان هذا العطف حقيقي! لكنه بدا مسروراً اكثر منه قلقاً.

اجابت:

«لا ابداً.. وانت؟».

«انا اقدر البرق تقديراً عالياً، فقد شاهدت ما يمكن ان يفعله. لكنني لا اخافه».

«من الصعب عليك ان تعترف حتى لو كنت تخاف» قالت فانيسا بنعومة وطراوة: «اقصد، هل تخاف من اي شيء؟».

كانا قد وصلا الى اعلى الدرج. وعلى الجانبين ممران واسعان غطيت ارضيتهما بالسجاد الثمين. وقف كال غرين ووضع الحقيبتين على الأرض بحركة بطيئة مقصودة.

قال بصوت منفعل:

«علينا ان نجد اسلوباً للتعايش اذا ما كنت ستقضين وقتاً هنا. لو كنت في مكانك لراقبت لساني جيداً، فهو سليط جداً بالنسبة الى آنسة رقيقة مثلك».

احست وكأنه صفعها. وبصعوبة كبيرة استطاعت ان تجيبه بهدوء:

«هل تهددني؟».

«ابداً»... بدت عليه الدهشة. «اني ابدي ملاحظة فقط. هل أبدو كمن يهدد امرأة؟».

كانت السخرية واضحة في صوته.

«لا اعرف ما فيه الكفاية حتى احكم على ذلك» ردت على هجومه بسرعة. وقالت «في الواقع لا اريد الحكم عليك. لكنك تستطيع ان تكون فظاً حتى بدون ان تحاول. فهذا ما فعلته فعلاً بعد انقاذي. فقد حاولت ان تقول انني شجعت الشابين على معاكستي».

قاطعها بحدة:

«لم افعل ذلك. فقط اقترحت عليك ان تغضي عينيك الساحرتين عندما تكونين في مكان ما..».

ردت عليه بسرعة:

«وكأنني كنت احاول استمالتهما، او اي شيء من هذا القبيل».

كان موقفاً غريباً ان تكون هناك. هو وهي فقط في ذلك البيت الضخم. تناقش الرجل الغريب وتحاول ان تنتصر عليه ولو لمرة واحدة. تنفست بعمق لتستعيد رباطة جأشها.

ضحك وقال:

«الم تحاولي استمالتهما؟».

واندفعت فانيسا اليه رافعة يدها الى ذلك الوجه البارد:

«كيف تجرؤ..».

ولم تستطع ان تكمل.

امسكها وجمدها دون جهد يذكر. نظر اليها بعينين لامعتين بينما كفاه يمسكان ذراعيها بقسوة وبرودة.

«انت قطة متوحشة بالفعل»، وقال بهدوء: «ما هذه الطباع التي تحملين؟ انت تدركين انني قادر على ترويضك...».

صرخت بصوت مخنوق:

«اتركني!».

«سأتركك عندما اكون جاهزاً. اريدك ان تستمعي الي لدقيقة. فأنت بين يدي الآن..».

وحاولت فانيسا ان تخلص نفسها، لكن قبضته كانت قوية للغاية.

قالت وهي تتنفس بصعوبة:

«انك تؤذيني».

كانت دون حيلة على الاطلاق. كم تكرهه الآن! كيف يتجرأ على

ذلك؟

«اذن اهدأي قليلاً. لن ادعك تصفعينني، واعرف انك ستفعلين ذلك اذا ما اطلقت ذراعيك. والى ان تهدأ اعصابك، سأظل ممسكاً بك».

«اذا لم تتركني فلسوف اركلك بقدمي».

وكانت تعني ذلك تماماً.

«جربي ذلك» اجابها بصوت ناعم وصلب، «اريدك ان تجربي ولو لمرة واحدة. واعدك بأنك بعدها لن تثوري بسرعة ابداً».

اصابتها كلماته الباردة بما يشبه الجمود، واحست برعشة تسري في اوصالها. ماذا يمكن ان يفعل؟ وتذكرت كيف استطاع ان يواجه الشابين اللذين هاجماها... فشعرت بالخوف. ودون ان تعي خففت من توتر جسمها. فكرت انه من الأفضل عدم مقاومته كي لا تعطيه المجال لممارسة بعض ضربات الجيدو ضدها.

«هذا افضل. لقد توقفت عن المقاومة».

خفف كال غرين قبضته عن ذراعيها واصبح وجهه اقل قسوة.

«تذكري دائماً انك لا تستطيعين مقاتلتي، ولذلك لا تجربي!».

قالت بصوت ضعيف:

«انت مقرف. الن تطلق سراحي؟».

«هل تريدين ضربي؟».

«كلا».

اختفى الضغط. دلكت فانيسا ذراعيها حيث كانت قبضتاه، ونظرت الى حقيبتيها. خانتها قواها في حملها. ولسبب غير معروف شعرت ان ذراعيها ضعيفتان كما لو ان عضلاتها ترفض العمل. سألت بجزع:

«ماذا فعلت بي؟ انني لا استطيع...».

«لم افعل شيئاً. ما دمت انك ضعيفة الى هذا الحد، اقترح عليك تعلم بعض وسائل الدفاع عن النفس. وهكذا اذا ما هاجمك احد المتشردين في المستقبل، تستطيعين القضاء عليه».

قالت بسخرية واضحة:

«سأتذكر ان التحق باحدى مدارس تعليم الجيدو عندما اعود الى لندن».

نظر اليها بحزم:

«لا حاجة للانتظار. يمكنك المباشرة الآن. سأكون مسروراً عندما ادربك شخصياً».

وابتسم. ولم تعرف فانيسا كيف تتقبل كلماته وابتسامته. نظرت اليه ببرود. قالت:

«هل اذهب الى غرفتي الآن. اريد ابدال ملابسي».

«بالطبع. من هنا الطريق».

حمل حقيبتيها وسار امامها. وفيما هي تتبعه، اخذت تفكر بالعرض الذي قدمه لها.

لا يمكن ان تسمح له بتلقينها اي شيء. . فجأة خطرت على بالها الفكرة التالية: سيكون الأمر مثيراً للاهتمام بالفعل. لكنها سرعان ما طردتها.

٢- في البيت الكبير

اصيبت فانيسا بصدمة قوية عندما شاهدت الغرفة المخصصة لها. لكنها اخفت مشاعرها حتى غادر كال غرين المكان كي لا تعطيه فرصة الشماتة من دهشتها البالغة.

كانت الغرفة جميلة جداً، عالية السقف وواسعة تماماً، وتطلّ على مقدمة المنزل من خلال نافذتين عريضتين تكشفان الحدائق والسهول التي قطعتها فانيسا قبل قليل. اتجهت الى احدى النافذتين لتتأمل المناظر البديعة الممتدة. وقفت صامتة امام الستائر المخملية الخضراء. الليل اصبح اكثر حلكة، والعواصف الرعدية تزمجر في البعيد. . . انهمر المطر غزيراً بحيث أحست ان اخضرار الأرض انعكس على الضوء الخافت في الخارج. تركت فانيسا النافذة لتتأمل اثاث الغرفة المصنوع كله من خشب السنديان المصقول. كان هناك مقعدان وثيران وسريرها المفروش بغطاء مزين بالورود. وفي احدى الزوايا استقرت ساعة حائط اثرية والى جانبها طاولة عليها مزهرية. . . وكلها قديمة وغالية الثمن. ووجدت حتى جهاز تلفزيون احتل الزاوية المجاورة للنافذة.

اثاث الغرفة يدل على ذوق راق واهتمام ملحوظ. فجأة شعرت ببعض الذنب، لكنها تخلصت منه بسرعة. من غير المناسب ان تشعر بذلك ولم يمض على وجودها في المنزل اكثر من خمس دقائق. لقد اتخذت قرارها نهائياً، وعليها ان تستمر في مهمتها. . . من أجل ابيها.

غطت وجهها براحتيها عندما احست بألم حاد. انه الألم الناشيء عن ادراكها بأنها مهما فعلت، فان كل شيء قد فات الآن. تنفست بعمق

واتجهت الى مرآة تغطي خزانة بالقرب من السرير. فتحت الخزانة، فاذا بها امام حمام متكامل. لا شك ان كال غرين تعمّد عدم الاشارة الى الحمام من اجل دفعها الى سؤاله وبالتالي احراجها. لكنها اسقطت هذه الفكرة من رأسها فوراً.

كان الحمام بمثل جمال غرفة النوم. المرايا تغطي معظم الجدران، ما عدا النافذة التي تطل على غابات كثيفة. تلفتت فانيسا حولها بارتياح. كم كان جميلا لو انها فقط..! يجب ان لا تفكر بهذه الطريقة، خرجت من الحمام بحزم واغلقت الباب خلفها. سوف ترتب ملابسها وتستحم ثم تنتهيا للعشاء.

خيّم جو من الهدوء والروعة على الغرفة عندما اضاءت الأنوار الموزعة بشكل مناسب. اغلقت فانيسا الستائر، وفتحت حقيبتها وبدأت عملية الترتيب.

عندما نزلت الى القاعة الكبرى لم تسمع أي صوت سوى حركات رقّاص ساعة الحائط. اضيئت ثريا واحدة فأعطت نوراً برتقالياً انعكس على الجدران والمقاعد الخشبية الثقيلة. كانت العاصفة الرعدية قد انتهت، ولم تتبق سوى بعض حبيبات من المطر تضرب النوافذ بين حين وآخر. لذلك تشجعت وتوجهت الى الباب الخارجي وفتحته. القت نظرة متأملة على الحديقة المشبعة بالمطر. احست بقشعريرة خفيفة عندما جاءها صوت من الخلف:

«لا اعتقد انك تفكرين بنزهة في مثل هذا الوقت؟».

استدارت ببطء. عرفت صاحب الصوت على الفور. لم تسمع في حياتها صوتاً يشبه صوته الهادىء العميق مع تلك الرنة الساخرة التي تبدو واضحة عندما يخاطبها... وهذا ما كان يزعجها، لكنها لن تظهر ذلك. اجابت:

«كنت أتأمل فقط».

عادت اليها صورة شجارهما الأخير. ما زالت تحس بالوخز في ذراعيها حيث امسكها بقبضتيه القويتين. عليها ان تكون حذرة تماماً مع السيد كال غرين، الآن وكل أوان. كان قد غيّر ملابسه الى سترة مريحة مع سروال مناسب وقميص مفتوح عند الصدر. وأدركت عند رؤيته - رغم شعورها نحوه - بأنه جذّاب للغاية، فالسترة اظهرت منكبيه العريضين، واستغربت

كيف جاءها الانطباع الأول في المقهى بأنه من النوع الذي يهرب من المشاكل. كان يبدو واثقاً من نفسه تماماً. نظرت فانيسا الى نفسها، لقد بدلت هي ايضا ملابسها الى زي ازرق اللون كان يشعرها بالارتياح دوماً. كانت ممشوقة القامة بغير امتلاء، وقد ابرز اللون الأزرق نضارة بشرتها الوردية. ارادت ان تبدو في احسن صورة كي تستعيد ثقتها بنفسها، خاصة امام ذلك الرجل الذي ما لبث ان سألها:

«هل أنت جائعة؟ السيدة بانكس تريد ان تعرف».

«أجل، لكنني لا أريد ان اشغلها...».

قاطعها قائلا:

«لن تشغليها، فالعشاء جاهز».

اجابت بنعومة واضحة مع انها لم تكن تريد ذلك:

«قل لي، هل تترك احداً يكمل كلامه؟».

أجاب ضاحكاً:

«ليس هناك وقت للكلام الفارغ، اذا كنت تقصدين ذلك. فأنا اريد ان اطرق لبّ الموضوع مباشرة».

وافقت بهزة خفيفة من رأسها:

«فهمت ماذا تعني، وعليّ ان اتذكر ذلك. لكني سأرى كيف تكون ردة فعلك عندما يقاطعك احد ما».

رفع كال حاجبيه مستغرباً:

«لا شك ان الجوع يجعلك عصبية المزاج. هيا بنا الى غرفة الطعام، فستشعرين بالراحة بعد الأكل».

ولمس ذراعها خفيفاً وهو يدلها على الطريق.

ابعدت فانيسا ذراعها بهدوء وقالت:

«شكراً لك، فأنا لست طفلة. سأتبعك الى المائدة اذا ما تقدمت الطريق».

اغلق الباب خلفه بسرعة:

«حسناً، من هنا الطريق».

سار امامها متجهاً الى يمين القاعة، وعبر عدة ابواب مغلقة حتى وصل الى غرفة طعام واسعة فيها طاولة تكفي لحوالى خمسة وعشرين شخصاً.

غاص قلبها بين ضلوعها: هنا ستتناول عشاءها، بالنسبة اليها كان يكفي طعام خفيف في غرفتها. لكن الأسوأ على الطريق، فعلى احد طرفي الطاولة شاهدت كرسيين فقط.

«كرسيان؟» ونظرت اليه.

ابتسم وقال «نعم، كرسيان». وأضاف متابعاً:

«لم اكن لأسمح لك بتناول الطعام وحيدة.. أليس كذلك؟».

اجابت بلهجة غير مبالية:

«الا تستطيع فعلا؟ كنت اعتقد ان الأمر سيروق لك!».

«أنا مضيفك الآن وحتى عودة السيد ماكلين».

تنبّهت الى رنة سخرية خفيفة في صوته العميق. تنفست بعمق وردّت ببرودة واضحة:

«أي كرسيّ لي؟».

سحب الكرسي القريب منها وقال:

«تفضلي واجلسي».

وما ان استقر بها المكان حتى دخلت امرأة قصيرة القامة ذات شعر اشيب، ترتدي فستاناً اسود اللون، وهي تدفع عربة الطعام امامها. حدقت في فانيسا قبل ان تخاطب كال:

«هذا هو الحساء. من الأفضل ان تتناوله ساخناً».

«انني اعرف ذلك»، ابتسم لها بعذوبة ادهشت فانيسا، ثم قال:

«هذه فانيسا كولينز التي ستشرف على ترتيب المكتبة».

هزت السيدة بانكس رأسها وعلى شفتيها ظلال ابتسامة:

«حسناً جداً. لقد مللت من الكتب التي تملأ المكان». حدقت مرة اخرى بفانيسا قبل ان تضع الصحون على المائدة ثم تغادر الغرفة. ولاحظت فانيسا ان لهجتها عامية واضحة.

كان الحساء المصنوع من عصير الطماطم طيب الطعم للغاية. انتظرها كال حتى بدأت قبل ان يتناول ملعقته:

«ان كلامها أقسى من افعالها».

قال وكأنه لاحظ استغراب فانيسا.

«انها لم تقصد الملل من الكتب بل من عدم ترتيبها».

«طبعاً... طبعاً».

ورفعت حاجبيها بدهشة مصطنعة فلم يكن وحده قادراً على افتعال الاستغراب.

«انا لم اتصور عكس ذلك».

وانحنت مجدداً نحو الحساء.

تناولت فانيسا قطعة من الخبز المحمص الذي احضرته السيدة بانكس مع الحساء. كان الخبز طازجاً وساخناً، والرائحة الشهية تنبعث منه. وادركت كم هي جائعة، وقررت في نفسها ان لا تدع كال غرين يفسد عليها وجبتها مهما قال او فعل. وللحقيقة كان كال منشغلاً بنفسه بحيث لم يرفع نظره اليها. استطاعت ان تراقب بحذر وجهه وهو منحن نحو الحساء، وقد انعكس ضوء الشمعدان الناري على شعره. هناك شيء مؤثر في ذلك الوجه. ولم تستطع فانيسا ان تفسر لماذا لم تره قوياً من قبل. لعل النظرة الأولى خادعة دائماً، وهذا بالفعل ما حدث. فالطريقة التي تعامل بها مع الشابين تؤكد قوته. وفجأة خطر على بالها شيء جعلها تضطرب. انه لم يكتف بعدم الخوف منهما بل كان يستمتع بالقتال معهما. عادت الى صحن الحساء لتخفي اضطرابها، اذ تذكرت ما حدث لها معه في الممر العلوي. اين فرصتها في التغلب على رجل مثله؟ لقد هددها بالفعل عندما حذرته من انها ستركله بقوة. لعله كان على حق. وشعرت بشيء يرتعش داخل جسمها... شيء من الحقيقة، مع شعور آخر لم تستطع تحديده جعل قلبها يخفق بسرعة. ومهما يحدث الآن فقد حذرها سلفاً. عليها ان لا تحاول التورط معه ابداً. ومع انها وصلت الى هذه القناعة، الا ان سؤالاً اخر الح عليها: هل سيكون الأمر صعباً؟

«وهذه غرفة زجاجية خاصة للنباتات».

كان كال غرين يريها انحاء المنزل. لم تجد في تصرفاته ما يمكن ان يعطيها مجالاً للشكوى.

رددت الغرفة صدى صوتيهما وهما يدخلان اليها. كان الجو دافئاً ورطباً. شاهدت العديد من النباتات الغريبة الموضوعة في احواض فخارية مختلفة الاحجام، وكذلك كرمة عنب كبيرة تتسلق الحائط وتمتد على امتداد مساحة السقف الزجاجي. نظرت الى أعلى فلمحت عنقوداً من العنب

يختبىء تحت الاوراق الخضراء. قالت بصوت خافت:

«انه رائع».

وافقها قائلاً:

«رائع جداً. كنت متأكداً من ان المكان سيعجبك». سخرية خفيفة في صوته، لكنها شعرت بها بأي حال. يا له من رجل كريه. نظرت اليه. عليها ان تحافظ على هدوئها، لأنها اذا اضطربت فسوف...

«اتمنى ان ارى المكتبة» قالت بنعومة، «الن تقودني اليها؟».

كان العشاء ممتازاً بالرغم من بطء الخدمة. وقبل ان يتناولا القهوة في الصالون الكبير اصر كال على ان يأخذها في جولة على البيت.

«طبعاً. المكتبة هي خطوتنا المقبلة».

شاهدا معاً الصالون الكبير والمطبخ الفسيح، والعديد من الغرف الصغيرة... احداها تستعمل كمكتب عمل واخرى تضم آلة كاتبة واوراقاً مختلفة. منعها كال بأدب من البقاء طويلاً في هاتين الغرفتين فحبست في نفسها عدة اسئلة ستطرحها في وقت لاحق.

انبعث هواء حار عندما فتح باب غرفة النباتات وخرجا منها الى الممر. سمعته يغلق الباب خلفه ثم يقول:

«سنتجه شمالاً عند اخر الممر».

غريب كيف يحس الانسان تجاه شخص لا يحبه. كان خلفها تماماً، احست بنخزات في ظهرها وكأنها تتوقع منه ان يهاجمها.

ثم قفزت وهي تصرخ عندما احست بلمسة على ظهرها. اخذ يضحك:

«هل افزعتك؟ انت ذاهبة في الاتجاه الخاطىء. من هنا رجاء».

تجاوزها وهو يمسك بذراعها ليدلها على الطريق. استدارت بخضوع. قالت لنفسها «صرت اضطرب كهرة صغيرة كلما كان قريباً مني. يجب ان اوقف هذه المهزلة واسيطر على نفسي... والا سيعرف الحقيقة».

فتح احد الأبواب. دخلت الى المكتبة ونظرت في كل اتجاه. احست بقلبها يغرق من شدة الفرف. ماذا توقعت هنا، مكتبة منظمة حيث الكتب تحتل رفوفاً جميلة؟ الامر ليس كذلك في هذا البيت. مئات ومئات من الكتب المبعثرة في كل اتجاه، والتي تصل الأرض بالسقف بفوضى مرعبة.

«هذه هي المكتبة. فماذا كنت تتوقعين؟».

كان يراقبها، ولاحظت في عينيه اللامعتين شعاعاً من السخرية والتشفي.

هزت فانيسا رأسها باستسلام واعترفت:

«كنت اعتقد... الواقع انها اكبر قليلاً مما تصورت».

بدت ابتسامة خبيثة على شفتيه:

«الحقيقة انها اكبر بكثير. في كل حال يبدو انك قادرة على التعامل معها، لكنك بحاجة الى ملابس قديمة لأن بعض الكتب مغطى بالغبار منذ سنوات».

كان هناك نوع من التشفي في نبرته.

نظرت اليه بحدة. انه يستغل قرارها بعدم الانجرار الى مواجهة معه كي يثير اعصابها، وهو يدرك تماماً ان تصرفاته تجعل الأمور اسوأ... ومع ذلك بلعت ريقها بصمت.

«سوف ابدأ غداً» اجابته بثقة «اؤكد لك ان بعض الغبار لن يزعجني ابداً».

ابتسمت وهي تنظر اليه من اسفل الى اعلى، وتتصوره غارقاً في غبار مئات الكتب. سيبدو مثيراً للضحك... لكنها لم تجرؤ على ذلك.

«حسناً جداً» رفع احد حاجبيه وتابع قائلاً «هيا بنا، سأريك القبو الآن ثم نتناول القهوة. يجب ان لا نترك السيدة بانكس تنتظر اكثر».

«القبو؟».

هل يعتقد انها تريد رؤية الفحم او مواد التموين؟ وامسكت ضحكة كادت تفلت منها.

«صدقيني سيعجبك المكان جداً. هيا بنا من هنا».

تقع السلالم المؤدية الى القبو في الجهة الخلفية من المنزل. وكانت فانيسا تشعر بالضياع طيلة جولتها في البيت الكبير... فهذا بيت ابيها... هنا ولد وترعرع ولعب...

«سأسير في المقدمة. فالسلالم ضيقة وشديدة الانحدار. هل ترين طريقك؟».

«نعم، شكراً لك».

الجدران مطلية بلون ابيض. والسلالم حجرية مغطاة بسجاد سميك بحيث لا تكاد تسمع وقع خطواتها. سارت فانيسا خلف كال حتى وصلا الى ممر تضيئه انوار خفيفة شاحبة وتطل عليه عدة ابواب كلها مغلقة.

تلفتت حولها بسرعة عندما خطرت على ذهنها فكرة انه قد يحتجزها في القبو. الفكرة غير معقولة بالطبع، لكن مع مفاجآت مثل هذا الرجل كل شيء محتمل.

«من هنا. هذا ما اردت ان اريك اياه».

فتح كال الباب البني الواقع الى الشمال. وترددت فانيسا في الدخول. لكنها عندما فعلت اصيبت بدهشة شاملة. اذ ما ان اضاءت الغرفة حتى شاهدت شيئاً لم تكن تتوقعه ابداً، ولم تجد ازاءه سوى الدهشة.

وجدت نفسها في غرفة رياضة واسعة مزودة بالحبال والقضبان الحديدية واحصنة القفز وادوات رفع الاثقال. وفي احدى الزوايا دراجة ثابتة للتمارين البدنية. استدارت فانيسا نحو كال وقد زالت من نفسها للحظات كل العداوة تجاهه، وقالت:

«انها رائعة جداً».

«السيد ماكلين رياضي مداوم. يأتي الى هنا مرتين او ثلاث مرات اسبوعياً».

تقدم كال نحو فراش اسفنجي في احد جوانب الغرفة وقال:

«هذا فراش لرياضة الجيدو. السيد ماكلين يجيد هذه اللعبة ايضاً».

نظرت اليه وتساءلت:

«هل انت مدربه؟».

هز رأسه نافياً وقال:

«كلا. انا لم ادربه. لكننا نتمرن سوياً. انه في حالة ممتازة بالنسبة لسنه».

فانيسا تعرف كم يبلغ جدها من العمر. عرفت ذلك من ابيها. انه في السادسة والستين. لكن من المفروض ان تجهل ذلك، وقد تكشف هويتها الحقيقية اذا لم تكن حذرة في مثل هذه الأمور.

«كنت اعتقد ان السيد ماكلين عجوز جداً».

نقلت نظرها بين الفراش وبين كال، ولاحظت الحدة في نبرته عندما

اجابها:

«انه في منتصف الستينات على ما اعتقد، وهذا لا يعني انه عجوز جداً».

لماذا نظر اليها بهذا الشكل؟ لقد بدأت تشعر بعدم الارتياح. هل هو شعور المجرم بأنه سينكشف بين لحظة واخرى؟.

وغيرت فانيسا مجرى الحديث لاخفاء اضطرابها وقالت:

«الآن فهمت عرضك بتدريبي... فكل شيء موجود هنا!».

لكنها ندمت على كلامها لأنها كانت تحاول نزع تلك الفكرة من رأسها.

«ما زلت تتذكرين العرض هل تريدين الدرس الأول الآن؟».

تجاوزت الأمور الحد. حاولت فانيسا ان تبتسم بصعوبة وهي تقول:

«بالطبع لا.. فأنا لا اتوقع..».

قاطعها بهدوء:

«حانقة؟».

«لقد شاهدتك خلال قتال حقيقي، وهذا يكفي. لربما شطّت بك حماستك بعيداً. اقصد، لا اريدك ان تشعر بالذنب اذا ما حدث... ان كسرت ذراعي مثلاً».

ابتسم برقة وهدوء وقال:

«اؤكد لك انني سأكون حذراً جداً».

«انا متأكدة من حرصك، لكنني لا اريد الآن».

استدارت فانيسا متجهة نحو دراجة التمرين. فوجئت بكال يمسك بذراعها ويوقفها بسهولة.

نظرت الى اصابعه القوية حول ذراعها وقالت بحزم:

«ارفع يدك عني!».

«اجبريني على ذلك».

رمقته باستغراب شديد، فيما كان يتابع قائلاً:

«لو كنت احمل نوايا سيئة تجاهك لما صمدت لحظة امامي. عليك بتعلم بعض اسس الدفاع عن النفس، وسيكون هناك عنصر مفاجأة يكفي لانقاذك مني».

ظلت فانيسا جامدة في مكانها للحظات، ثم قالت:

«لماذا انت مصمم على تدريبي؟».

«لأنك واجهت وضعاً خطيراً جداً في طريقك الى هنا، اذ ليس لديك اية فكرة عن سبل المواجهة... وايضاً فأنا لا احب النساء اللواتي لا يستطعن الدفاع عن انفسهن».

ورفع قبضته عن ذراعها تاركاً لها حرية الذهاب، لكنها لم تتحرك. ففي كلامه كثير من الحقيقة. وبالرغم من عدم الاعجاب المتبادل الا انه يعني ما يقول.

قالت بعد تردد:

«انني استطيع حماية نفسي. اذا هاجمتني الآن فسوف ارفع قدمي واركلك بشدة...».

قاطعها قائلاً:

«... سوف تجدين نفسك ملقاة على ظهرك قبل ان تصل قدمك الى هدفها».

ولما رآها مترددة وغير مصدقة تابع قائلاً:

«تريدين اثباتاً؟ اذن هيا جربي... هيا».

اندهشت وقالت باضطراب:

«ربما... ربما أؤذيك».

اجابها ضاحكاً:

«سوف اغامر... هيا جربي».

هزت رأسها موافقة لأنها تدرك انه يقول الحقيقة:

«لا اريد ان اجرب. انني اصدقك».

والتفتت الى الخلف حيث فراش الجيدو. وارتجفت عندما فكرت بأنه سيرميها الى الفراش بلمحة البصر.

قال لها وكأنه يقرأ افكارها:

«لن ارميك بقوة. بل لن تشعري بذلك ابداً. وهذا شيء آخر يجب ان تتعلميه: ان تتقني طريقة السقوط بدون التعرض للأذى».

«سوف افكر في الأمر جدياً».

وابتعدت باصرار عنه. الفكرة كلها سخيفة. لن تسمح له بأن يعلمها كيف تدافع عن نفسها، بل لن تسمح له بأن يلمسها... ولكنها شعرت

برعشة خفيفة عندما خطرت هذه الأفكار في ذهنها.

طردت الفكرة من رأسها ووقفت تتأمل دراجة التمرين وعدادي السرعة والمسافة الملحقين بها، واللذين يؤشران للمسافة التي «قطعها» الراكب والسرعة التي «سافر» بها. سيكون من الممتع بعد نهار طويل من العمل بين الكتب والغبار، ان تنزل الى الغرفة «لتسافر» عدة اميال على الدراجة. اغتصبت الابتسامة التي اوجدتها الفكرة عندما رأت كال غرين يراقبها.

«هل هناك شيء اخر تريد ان تريني اياه؟».

قالت بسرعة لأن نظراته تلك اشعرتها بعدم الارتياح.

«الحمامات هنا، وغرف تغيير الملابس الى جوارها... هذا كل شيء».

«حسناً، هل يمكن الآن ان نذهب لتناول القهوة؟ انني متعبة جداً من جراء السفر واريد ان أوي الى فراشي باكراً اذا امكن!».

«بالطبع. فالقيادة الطويلة متعبة جداً».

سارا معاً باتجاه الصالون. التوتر كان مخيماً عليهما، ومن الممكن ان ينفجر في اية لحظة اذا لم تكن حريصة، خاصة ان شعورهما بعدم الاعجاب المتبادل يجعل الأمور اكثر خطورة. وتساءلت عن السبب في هذا الشعور وهما لم يلتقيا الا منذ ساعات قليلة.

قبل ان تأوي الى فراشها قررت فانيسا ان تنظر الى الأمور من زاوية مختلفة في صباح الغد، انها متعبة، ولم تكن كاذبة عندما قالت لكال غرين ان السفر قد انهكها. فالحادث المشؤوم الذي كاد يقع لها خلق ردود فعل عديدة. هناك اشياء كثيرة يجب ان تشكره عليها، لكنه جعل الأمر صعباً للغاية. رتبت وضع وسادتها ودخلت الى فراشها بعد ان اغلقت الباب باحكام. كانت القهوة بانتظارهما في الصالة عندما عادا من غرفة الرياضة، ولم يكن هناك من اثر للسيدة بانكس او زوجها. لعلهما لا ينامان في القصر. يعني... ضحكت فانيسا في سرها وهي تسحب الغطاء الى كتفيها. فكال غرين غير معجب بها، ولن يحاول بالتالي ان يتسلل الى غرفتها. استلقت على ظهرها وحدقت في السقف طويلاً. رأت شقوقاً متشعبة تتفرع في كل اتجاه. حاولت ان تتصور اشكالاً في هذه السقوف، لكنها لم تستطع لأن الخطوط بدأت تغيب عن ناظريها. رفعت يدها وجذبت الخيط الذي

يتحكم بالأنوار. . . اطفأته ونامت.

استغربت فانيسا عندما استيقظت باكراً، ما الذي جاء بها الى هذا المكان الغريب؟ لكن سرعان ما عاد اليها سيل الأحداث التي وقعت بالأمس. نقلت عينيها في انحاء الغرفة تستكشفها على ضوء الفجر الباكر. كل شيء يبدو مختلفاً، والنور المنسكب من خلف الستائر اظهر اتساع الغرفة وتناسقها الجميل. غادرت فراشها واتجهت الى النافذة.

كان الضباب الكثيف يغطي الأرض، فظهرت الاشجار والزهور وكأنها غارقة في بحر من الدخان الأبيض. السكون يلف المكان. عادت الى سريرها واستلقت عليه برهة. في هذه الأثناء كان الضوء يشتد في الغرفة، وادركت فانيسا انها لن تستطيع العودة الى النوم مجدداً خاصة ان عقلها مليء بالأفكار المتضاربة.

بلغت الساعة السادسة والنصف. وقد ابلغها كال امس ان طعام الافطار سيقدم عند الساعة الثامنة والنصف. وهذا يعني ان هناك متسعاً من الوقت للاستحمام وارتداء ملابسها والذهاب في نزهة قصيرة.

ملأت فانيسا المغطس بالمياه الساخنة وهي تفكر ان نزهة قصيرة حتى الأبواب الخارجية لحديقة المنزل ستساعد على فتح شهيتها للافطار وتعدها للعمل المتعب في غبار المكتبة. ولكن من الأفضل ان تأخذ حمامها الساخن بعد عناء النهار؟ لعل حمام المساء افضل؟ في كل حال تستطيع ان تستحم مرة اخرى. فقد اخبرها كال من ضمن ما اخبرها امس، ان المياه الساخنة جارية بشكل دائم في المنزل. . . فالمجرى المائي الذي ينبع من سفح الجبل يؤمن للمنزل احتياجاته من الماء، بالاضافة الى انه يسير المحرك الذي يولد الكهرباء ايضاً.

وعندما استلقت فانيسا في المغطس الساخن، استعادت ذكرى السهرة القصيرة التي امضتها مع كال امس حول فنجان القهوة. ورغم كل شيء، لا تستطيع ان تنكر انها كانت هدنة سلمية وسط نهار مليء بالمواجهات. لقد حاول جهده ان يكون ساحراً ولطيفاً، ربما تعمد ذلك لكنها ليست متأكدة. واستطاعت ان تشاهد جانباً آخر غير متوقع من شخصيته.

ارتدت ملابسها وهي تفكر كيف سيكون نهارها الأول هنا. ولأنها خافت من البرودة في الخارج بعد حمامها الساخن، وضعت على كتفيها

معطف الفرو الناري اللون وتسللت بهدوء من غرفتها الى الطابق الأسفل.

وحدها ساعة الحائط الاثرية كانت مستيقظة من خلال دقاتها الرتيبة. وما عدا ذلك لم تسمع فانيسا اي شيء في البيت الذي بدا مهجوراً. انها السابعة وعشر دقائق من صباح احد ايام يونيو (حزيران)، واليوم سترى جدها لأول مرة. سوف تراه وتتحدث اليه كأنه غريب. هو لن يعرف الحقيقة حتى اليوم الأخير، وعندها يكون الأوان قد فات لأنها ستغادره.

احست بالعرق البارد يتصبب من راحتي يديها، فأسرعت تغادر البيت الى الهواء الطلق. وقفت لحظة امام الباب تستقبل الهواء البارد المشبع بالرطوبة وهو يلفح وجهها. لقد انقشع الضباب قليلاً واصبح الطريق المعبد مرئياً الى حد ما، بالرغم من ان الاشجار كانت ما تزال في بحرها الأبيض الساكن. ابتسمت بعطف وهي تشاهد الأرانب تهرب من الطريق عائدة الى الأشجار. لو ان هذه الأرانب الجميلة تعرف انها لا تريد بها شراً؟

من الواضح ان الجو ينبىء بطقس مشمس جميل هذا النهار. شعرت فانيسا بقشعريرة تسري في جسمها. ها هي هنا الآن ملتزمة بانهاء ما عزمت عليه - بغض النظر عن النتائج - ولا يمكن ان تتراجع ابداً.

هل هي نادمة لأنها تركت عملها؟ الزمن وحده سيجيب. كان عليها ان تترك العمل في اي حال خاصة ان رئيسها اصبح مزعجاً مضجراً، وباتت لا تحب ان تدخل الى مكتبه لتلقي التعليمات منه. اطبقت عينيها قليلاً. ان كال غرين على حق فيما يتعلق بمسألة الدفاع عن النفس. منذ ان بلغت السادسة عشرة، وتحول جمالها الطفولي الى فتنة نسائية طاغية، والرجال يحومون حولها دائماً مما سبب لها الكثير من المتاعب. صحيح انها ترتاح لقدرتها على التأثير في الجنس الخشن، لكن هناك جانب اخر للجمال فشل جميع من عرفتهم في فهمه والتعامل معه. فالجمال يسبب التعاسة والغيرة والشك لدى المعجبين الكثر، وايضاً لدى صديقاتها اللواتي اخذن يتجنبنها ويحاولن ابعاد رجالهن عنها مهما كلف الأمر.

والآن، لأول مرة في حياتها، وجدت الرجل الذي لم يقع تحت تأثيرها. . . بل هو معاد لها، حتى ان احداً من الذين عرفتهم لم يعاملها كما عاملها كال غرين. معاملته ليست فقط مزعجة بل متحدية ايضاً. . . واشياء اخرى كثيرة لم يجرؤ احد من قبل على التعامل معها بهذا الشكل،

خاصة عندما واجهها بعنف في الممر امس. لقد هددها بالفعل. فهي اعتادت على الاعجاب العميق من الجميع بحيث شكل لها اسلوبه الفظ صدمة عنيفة. كم كان مرعباً معها. وفجأة، عادت فانيسا الى الواقع على صوت عواء حاد... شاهدت امامها كلب حراسة ضخماً وقد تحفز للهجوم.

تجمدت فانيسا في مكانها. تعرف من خبرتها ان عليها عدم القيام بأية حركة. فجأة سمعت صوت رجل موجود في مكان ما بين الاشجار:

«لا تتحرك يا شيبا».

اجتاحتها موجة عارمة من الارتياح. ولم تعد قدماها قادرتين على حملها وهي ترى رجلاً طويلاً في ثياب سوداء يتجه نحوها. كان في مقتبل العمر، قوي القامة له ملامح الغجر السمراء. ابتسم عندما التقت نظراتهما، وقال بلهجة مؤدبة:

«صباح الخير».

لهجته الاسكتلندية كانت مليئة بالاحترام ولاحظت فانيسا نوعاً من الخجل في تعابيره وتصرفاته.

«صباح الخير. هل هذا كلبك؟».

«نعم».

ثم خاطب الكلب قائلاً:

«الآن يا شيبا عد الى البيت».

نظر الكلب الى صاحبه ثم اطاع الأمر وسار بعيداً. تنفست فانيسا بارتياح عميق.

اعترفت قائلة:

«كنت... متوترة الى حد ما».

«انت تعرفين ان شيبا لم يتوقع ان يرى احداً. فهذه المنطقة خاصة»..

كان يستعمل لهجة مؤدبة للغاية في محاولة لايضاح الموقف دون اتهامها بالتسلل الى البيت.

«اعرف ذلك. اني اقيم هنا».

فجأة شاهدت في عينيه نظرة تحدٍ:

«اذن انت... الآنسة التي جاءت لتنظيم المكتبة؟».

«نعم».

واضطرت الى مواجهته بغضب عندما انفجر ضاحكاً. لكنه استدرك بسرعة وقال:

«انا اعتذر. انني اضحك لأنهم طلبوا مني ان اعطي بعض الوقت للمساعدة في تنظيم المكتبة... وقد حاولت التملص من ذلك».

ثم اضاف مبتسماً:

«لكنني تأكدت الآن من انني اخطأت بالرفض».

كان هناك شيء جذاب في هذا الرجل... وشيء اخر بدا لها مألوفاً. لكن فانيسا استبعدت الأمر. لقد ارتاحت لأنها التقت رجلاً لا يتعمد ان يكون فظاً.

«انا متأسفة ايضاً».

ثم اضافت باستغراب:

«تساعدني في ماذا؟ لا اعتقد ان الأمر يحتاج الى...».

قاطعها قائلاً:

«اساعدك في الكتب. اقصد انزالها عن الرفوف العليا. فهناك اماكن يصعب على المرأة الوصول اليها».

هزت رأسها موافقة:

«اه... لم افكر في ذلك».

«اذن متى ستبدأين العمل؟».

«اليوم. لكن اليس عندك عمل آخر؟».

«بالطبع. انا البستاني، واعمل هنا مع ابي وعمي... وهما سيتدبران الأمر من دوني».

لم يكن في طول كال غرين، لكنه كان اضخم بنية وأقوى مظهراً. اقترب من فانيسا ووقف امامها قائلاً:

«انا لوري ماكينزي».

من الواضح انه ينتظر سماع اسمها، ومع ذلك لم يسأل مباشرة. ليس مثل كال الذي طالبها باسمها. لكن لماذا تعود هذه الافكار لتزعجها الآن؟

مدت اليه يدها مصافحة وهي تقول:

«انا فانيسا كولينز».

كانت يده دافئة وقوية.

«سوف اذهب الآن، انسة كولينز، لكني سأعود الى البيت الكبير في وقت لاحق... سوف تباشرين العمل بحدود الساعة التاسعة، اليس كذلك؟».

«اعتقد ذلك، فالسيد ماكلين لم يحضر بعد، والسيد غرين هو المسؤول في هذا الوقت».

لم يكن هناك سبب لقول هذه الجملة، لكن لعلها ارادت ان تعرف شيئاً ما عن الرجل الذي ستقابله هذا النهار.

«آه.. انه هو».

رنة صوته كانت غريبة، وللحظة اعتقدت انه يقصد جدها، لكن كلامه اللاحق بين لها خطأها.

«سوف آتي مباشرة الى المكتبة واساعدك. فذلك الرجل سيطلب مني مغادرة البيت اذا ما شاهدني».

وكان على وشك ان يضيف شيئاً اخر، لكنه توقف.

«السيد غرين؟ لماذا؟».

ضحك لوري ماكينزي:

«لقد قلت ما فيه الكفاية. فالى اللقاء يا آنسة كولينز».

رفع يده مودعاً، وقفل عائداً من حيث جاء... واختفى بين الاشجار.

سارت عائدة الى البيت وهي اكثر فضولاً من ذي قبل.

راقبت فانيسا كال غرين على مائدة الفطور. ارادت ان تشير الى لقائها بلوري ماكينزي، لكنها خشيت ان يعرف كال ان لوري سوف يأتي الى مساعدتها في المكتبة. لذلك التزمت فانيسا الصمت. ارادت ان تعرف لماذا يكره لوري كال الى هذا الحد؟ وهل المشاعر متبادلة بين الرجلين؟ ولم تكن لتدرك ان الجواب سيأتي قريباً جداً، وبطريقة غير متوقعة.

٣- ما هو اسمك الحقيقي؟

بعد الساعة التاسعة بقليل، دخلت فانيسا وكال المكتبة. وكانت الشمس تملأ الغرفة من خلال النوافذ الواسعة ذات التصميم الفرنسي. حاولت فانيسا جاهدة مقاومة الشعور بالانزعاج. انها مهمة صعبة، لكنها هي التي قررت المضي فيها بغض النظر عن كل الاعتبارات الاخرى. شاهدت على الطاولة الخضراء في منتصف الغرفة رداء واقياً. رفع كال الرداء وقدمه لها.

قال لها:

«السيدة بانكس احضرت لك هذا الرداء الذي سيحمي ثيابك من الأوساخ والغبار».

كان صوته هادئاً وخالياً من اي معنى، لكن فانيسا شعرت- مرة اخرى- بشيء مزعج يحيط بهما... نوع من التوتر الحاد الذي لم تفهمه ولم تحبه.

«شكراً لك ولها».

كان الرداء مصنوعاً من النايلون ولا يصل الى منتصف الساق، ومع ذلك فهو يفي بالحاجة. نظرت الى الطاولة وقالت:

«سأضع الكتب عليها تمهيداً لفهرستها، فهل من مانع؟».

سار كال الى احدى الزوايا واشار بيده الى مجموعة من الصناديق وقال:

«الاوراق والبطاقات وكل ما تحتاجين اليه موجود هنا».

ثم سألها:

«سوف تحتاجين الى مساعدة عندما تصلين الى الرفوف العليا، اليس كذلك؟».

لم تكن تريد ان تتطرق الى هذه النقطة، ولكن من الغباء الا تفعل الآن.
اجابت وهي تراقب وجهه:
«هناك شخص سيأتي لمساعدتي».
قطّب حاجبيه وقال:
«ماذا تقصدين؟».
«ذهبت في نزهة عند الصباح، فالتقيت برجل يدعى لوري ماكينزي فقال لي انهم طلبوا منه مساعدتي...».
لم يتركها تكمل جملتها.
«لوري؟».
ولاحظت انه ذكر الاسم بالطريقة التي ذكر فيها لوري اسمه.
واتسعت عينا فانيسا وسألت ببراءة:
«هل هناك شيء غير طبيعي؟».
نظر كال اليها ملياً. لم تكن هناك اية تعابير على وجهه، لكنها احست بالغضب الشديد يعصف به وهو يحاول السيطرة على نفسه. قال:
«لا شيء. لو كنت مكانك لراقبته جيداً... فقد تواجهين المتاعب معه».
«المتاعب؟ ماذا تقصد؟».
ظهر عليها الاستغراب، بالاضافة طبعاً الى محاولتها تمثيل دور المغفل البريء... لكنها تناست ما يمكن ان يفعله هذا الرجل.
رد بجفاء:
«اتركي هذه الالاعيب، ولا تمثلي دور البريء المسكين، فذلك لن ينطلي عليّ. انت تعرفين تماماً ما اقصد، بل يجب ان تعرفي. انت بالغة بما فيه الكفاية. ام هل تعتقدين ان الشابين اللذين هاجماك بالأمس كانا يريدان تقديم الاحترام والطاعة لسيادتك؟».
جاهدت فانيسا للاحتفاظ بهدوئها. لم ترد ان ترفع صوتها لئلا ينفضح اضطرابها، فقالت بصوت خفيض:
«انت مقرف».
«اذا كانت تصرفاتي المقرفة ستضع بعض الحس في رأسك.. فلا بأس. انا لن اكون موجوداً دائماً للدفاع عنك. المسألة كلها ان لوري ماكينزي

ذئب خبيث. وآمل ان تقدري على التعامل معه».
«انا قادرة على ذلك تماماً. عندي من التجارب ما يكفي لأعرف كيف اتصرف مع كل الرجال».
التمعت عيناها السوداوين بالغضب وقد استعادت ثقتها بنفسها.
«ستقول بعد قليل ان عليّ الا اشجعه.. هذا ما اوحيت به امس ايضاً».
«حسناً، ايّاك ان تشجعيه. اشغالي تكفيني، ولا اريد ان اسمع صراخك طلباً للمساعدة».
«لماذا لا ترحل وتتركني لوحدي؟».
ردت بغضب وهي تجمع قبضتي يديها بشدة. يا له من رجل عنيد ومغرور.
«وفري لكماتك له».
كان يراقب يديها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة «لقد حذرتك مما سيحدث لك اذا ما تعرضت لي».
«اذهب من هنا فوراً».
«انا ذاهب. الغداء سيكون في الواحدة ظهراً، والسيدة بانكس ستقدم القهوة عند الساعة الحادية عشرة».
راقبته فانيسا وهو يغادر المكتب بهدوء. تضاربت المشاعر في صدرها. لم تلتق باحد من قبل يشبه كال غرين. انه يخيفها بالفعل.
ظلت صامتة للحظات ثم استدارت تتفحص رفوف الكتب المتراصة. بعض الكتب كانت قديمة للغاية وقد اصفرّت اوراقها وتفتت الجلد الذي يغلفها. رفعت كتاباً عن الأرض وفتحته بعد ان نفضت طبقة الغبار التي كانت تعلوه. كان مجلداً يجمع اعداد احدى المجلات للعام ١٧٦٧، وكانت اوراقه مصفّرة بعامل الزمن ومتشققة في عدة اماكن، لكن الطباعة كانت واضحة بالرغم من صغر حجم الحروف. حملت فانيسا المجلد بعناية، فأحست- كالعادة- بأنها عادت الى تاريخ سحيق. شعرت برغبة في تصفح المجلد، لكنها ابعدته مباشرة. لعلها تستطيع ذلك عند الساعة الحادية عشرة، وقت تقديم القهوة.
كانت على وشك ان تضع الرداء فوق ملابسها عندما سمعت الباب

يفتح، ومنه دخل لوري ماكينزي. عادت اليها على الفور كلمات كال عن لوري، لكنها استبعدتها بسرعة واغتصبت ابتسامة عاجلة. فمن السخف ان تترك اعصابها نهباً لذلك الرجل.

حيته قائلة:

«اهلا بك، كنت على وشك المباشرة في العمل».

رد على تحيتها مبتسماً، كانت ابتسامة ناعمة خجولة، وليست ابداً ابتسامة ذئب.

قالت:

«كنت أتأمل الرفوف هنا. وسأكون ممتنة للمساعدة التي ستقدمها».

كان ينظر اليها بتأمل. ومع انها اعتادت هذه المواقف، الا انها احست برعشة تسري في اطرافها. هل من المعقول ان يستغل وجوده معها؟ كل شيء ممكن حتى مع اكثر الرجال هدوءاً وخجلاً. ولذلك وجدت سلوك كال غريباً محيراً، اذ لم يبد عليه انه يفكر بالتقرّب اليها بالرغم من انه رجل طبيعي بكل معنى الكلمة.

لكن لوري يختلف عن كال. انه هنا لمساعدتها. وسوف تعقد الأمور اذا ما امضت الوقت في مراقبته. لذلك قررت فانيسا ان تتجنب كل ما يمكن ان يساء تفسيره بحيث لا تدع مجالا لأحد. ابتسمت له ببرود وقالت مشيرة الى ناحية محددة:

«سأبدأ من هنا. ومن الأفضل ان نجمع الكتب على الطاولة ثم اقوم بالتسجيل».

«سأتناولها من فوق واضعها على الطاولة».

نزع سترته الجلدية الرقيقة فكشف عن قميص داكن الزرقة. كان صدره عريضاً وذراعاه قويتين. وضع سترته على كرسي قريب وتوجه الى احدى الزوايا وعاد بسلم خشبي.

امضى ربع الساعة الاولى في عمل متواصل ينزل الكتب عن الرفوف ويحملها الى الطاولة. عمل بسرعة ونشاط، وعندما وصل عدد الكتب الموجودة على الطاولة الى حوالى مئة كتاب، توقف عن العمل ونظر الى فانيسا.

«هذا كاف على ما اعتقد!» ثم اضاف «فانت بحاجة الى مساحة من

الطاولة للكتابة».

«نعم، وشكراً لك».

«سوف اساعدك».

نظرت اليه فانيسا باستغراب. ماذا يقصد؟

شاهد نظرتها وابتسم:

«سأساعدك في ترتيب الكتب حسب التسلسل.

اليس هذا ما ستفعلينه اولاً؟».

«أجل، ولكن...».

«بهذه الطريقة تسير الأمور بسرعة اكبر بالنسبة اليك ولي».

هزت رأسها موافقة:

«هذا ممتاز. لكنني لا اتصوّر...».

«ماذا؟ انا اعرف القراءة ايضاً».

«لم اقصد ذلك».

اعترضت بسرعة قبل ان ترى ابتسامته وتدرك انه يمزح.

«اعرف انك لم تقصدي شيئاً. على كل سيكون الأمر مثيراً، خاصة مع الكتب القديمة».

«اذن من الأفضل ان نبدأ الآن. في الواقع ربما تكون لديك افكار افضل مني. كنت سأسجل كل عناوين الكتب مع اسماء المؤلفين والمراجع الأخرى، ثم اعيد ترتيبها مع اشارة محددة عند كل عشرة كتب او...».

«لكن عندي فكرة افضل. لنفترض اننا...».

وأخذ يشرح خطته بهدوء وتفصيل وهو يحمل كتاباً من هنا ويقلب صفحات كتاب آخر من هناك. وكانت فانيسا تفكر وهي تراقبه: انه شاب لطيف. فلماذا لا توجد علاقات طيبة بينه وبين كال؟ لعل الأمر مجرد عداء طبيعي، وهو كثيراً ما يحدث دون اسباب.. وقد حدث بالفعل بيني وبين كال.

ولم يكن هناك متسع من الوقت للحديث او التفكير اذ غرقا في دوامة العمل. ومضى الوقت بسرعة بحيث فوجئا بالسيدة بانكس تدخل عليهما بالقهوة عند الساعة الحادية عشرة.. وعندما شاهدت السيدة بانكس لوري قالت.

«سأحضر لك فنجانا اخر».

ابتسم لفانيسا التي كانت تراقب قهوتها وتتساءل عما اذا كان سيعتبرها غير مهذبة اذا ما اخذت رشفة من فنجانها.

قال:

«لا أظنك تعتقدين بانها تحبني»؟.

كان كال قد قال شيئاً ما عن ان اقوال السيدة بانكس اكبر من افعالها. لعله على حق. هزت فانيسا رأسها وقالت.

«كلا هل تكرهك؟».

«أجل، بطريقتها الخاصة. يجب ان تتعرفي الى زوجها، فهو لا يفتح فمه بكلمة اذا استطاع ذلك، ومع ذلك فهي طاهية ممتازة. ولهذا السبب لا يتركها الرجل العجوز ترحل».

هذه هي الفرصة، واستغلتها فانيسا بسرعة:

«لم التق بعد بالسيد ماكلين، هل تعتقد انه شخص مناسب للعمل معه؟».

«بالطبع. انه رجل ممتاز.. عندما يعرفه الانسان بشكل عميق».

لكن النبرة التي حيرت فانيسا من قبل كانت ما تزال موجودة في كلامه.

«ماذا تقصد بالتحديد؟».

«حسناً. انه فظ في البداية. قد لا يكون فظاً معك كونك امرأة.. لكنه قادر على ذلك مع الرجال».

خفق قلب فانيسا بشدة. ما الذي دفعها الى هذا الموقف؟ لكن ما الذي كانت تتوقعه؟ بالطبع لن تقابل رجلاً لطيفاً، خاصة بعد الذي سمعته عنه من ابيها...

«حدثني عنه قليلا!».

فكر لوري قليلا:

«انه طويل القامة، نحيف بعض الشيء. مهووس بالمحافظة على رشاقته، يمشي عدة اميال يومياً.. ولا شك انك رأيت غرفة الرياضة».

«شاهدتها بالفعل. كال غرين اخذني اليها مساء امس».

ووجدت نفسها مدفوعة لأن تضيف قائلة.

«لقد وعد باعطائي بعض الدروس في الجيدو».

احتقن وجه لوري بالغضب. وكان على وشك ان يقول شيئاً عندما انفتح الباب ودخلت السيدة بانكس حاملة فنجان القهوة الثاني.

«هذا فنجانك».

وضعته على الطاولة ونظرت الى فانيسا قائلة.

«الغداء يقدم في الساعة الواحدة»...

ثم غادرت الغرفة.

تساءلت فانيسا عما كان سيقوله لوري، اذ انه حاول جاهداً خلال وجود السيدة بانكس ان يطرد من نفسه مشاعر الغضب. لكنه عاد الى طبيعته الآن وقال:

«لو كنت مكانك لابتعدت عن مضايقاته».

«لماذا؟».

نظر اليها بحدة.

«لأنه ثعلب. عرضه لك هو مجرد عذر..».

قطع حديثه فجأة ورفع فنجان القهوة الى شفتيه.

استغربت فانيسا كيف حافظت على طبيعتها. كال حذّرها اولا من لوري، والآن لوري يحذرها من كال. القصة كلها مضحكة، لكن الاثنين جادان في مخاوفهما.

«يا الهي، هل هو كذلك؟» وراقبته وهو يخرج علبة السجائر. قدم لها سيجارة، فرفضتها قائلة:

«لا ادخن، شكراً».

«هل تمانعين في ان ادخن؟».

«لا ابداً! لماذا تقول انه ثعلب؟ فانا لم اره كذلك؟».

بدا الغضب واضحاً على وجهه عندما اجاب:

«لأنه ذكي جداً في اخفاء احتياله. لكن عليك ان تسألي اختي عن الحقيقة فهي تعرفه اكثر من اي انسان آخر... اجل اختي. لقد رحلت الآن الى ابردين... هي تستطيع ان تخبرك اشياء عديدة عن كال غرين».

«متى رحلت؟».

«منذ اكثر من شهر تقريباً. انها تعمل الآن في فندق خالتي، وتقول انها لن تعود ما دام كال هنا».

كان ينظر الى الباب وكأنه يتمنى ان يدخل الشخص الذي يتحدث عنه. تناولت فانيسا جرعة كبيرة من القهوة لترطب فمها الجاف. وتنازعتها رغبتان: الأولى في ان تسمع المزيد، والثانية ان تقول للوري انها لا تريد ان تسمع شيئاً آخر. لكن لوري حل المشكلة عندما وقف واطفأ سيكارته في المنفضة وشرب قهوته دفعة واحدة.

«حسناً، لقد قلت ما فيه الكفاية. يجب ان اعود الى عملي بعد تناول الغداء. قبل ذلك سأجهز لك من الكتب ما يكفي لعملك هذا اليوم».

«شكراً لك، هل تعرف متى سيعود السيد ماكلين الى البيت؟».

اجاب قائلا:

«انا لا اعرف، لكن السيدة بانكس يمكن ان تخبرك. لماذا تسألين؟».

«انه صاحب العمل... واعتقد انه».

قاطعها بابتسامة صفراء:

«حاولي الاستفادة من الوقت قبل ان يحضر».

لكنه استدرك قائلاً:

«كنت امزح فقط. انه ليس سيئاً على الاطلاق. فقط» تردد قليلا ثم تابع «من الصعب شرح ما اقصد بكلمات قليلة، فهو يبدو في بعض الاحيان وكأنه ينظر من خلال الانسان، اي كأنه لا يراه ابداً او انه بعيد عشرات الاميال.. انه غريب جداً».

انصتت فانيسا بامعان. اين يكون عندما يذهب بعيداً؟ هل يسترجع الاحداث الماضية ويندم لما فعله؟ هل يعرف ان ما فات قد مات؟ ربما لن تعرف ابداً. شيء ما خفق في داخلها. انها تريد ان تلتقي هذا الرجل، جدها، ولكنها في الوقت ترغب بالهرب وتنسى كل شيء عن دينستون هاوس. اطرقت تنظر الى يديها. كلا، يجب ان لا تفعل ذلك ابداً. عليها ان تستمرّ حتى النهاية.

«هل انت على ما يرام؟».

«ماذا؟ آه. انا متأسفة».

هزت فانيسا رأسها وابتسمت بعمق للوري ناسية قرارها بابقاء مسافة بينها وبينه.

«كنت افكر».

وشاهدت وجهه يتغيّر، التمعت في عينيه السوداوين ملامح دافئة... فحوّلت نظرها عنه وشغلت نفسها باحد الكتب.

بعد عشر دقائق وقع المحظور. كانت قد توجهت الى احد الرفوف للتأكد من كتاب وضعته هناك قبل قليل، وعندما رفعت رأسها، شعرت به خلفها تماماً حتى قبل ان تلتفت اليه. تنفست بعمق، ثم احست بيده اليسرى على ذراعها فالتفتت بهدوء وقالت:

«نعم، ماذا..؟».

ماتت الكلمات اذ انحنى نحوها وعانقها بملء ذراعيه.

دفعته بعيداً عنها بدون غضب وقالت:

«لماذا فعلت ذلك؟».

ابتسم لوري قائلا:

«احسست برغبة في ذلك».

كان وجهه شاحباً عندما نظر اليها.

قالت بحزم:

«ارجوك ان لا تكررها. يجب ان تتذكر اننا نعمل معاً فقط، وليس اكثر من ذلك».

«سأحاول ان اتذكر. هل كنت سترحبين بالأمر لو كان كال مكاني؟».

كبتت فانيسا موجة عارمة من الغضب وقالت:

«بالطبع لا. وعلى كلّ فان الأمر لا يعنيك اطلاقاً».

«هذا افضل. فانا لا يمكن ان اتصوّرك بين ذراعيه».

اجابته ببرود شديد:

«اذن لماذا لا تفكر بعملك بدلا من الافكار الأخرى؟»

طغت ابتسامة كبيرة على شفتيه وهو يقول:

«انك قوية بالفعل. انا احب الفتاة التي تتأجج بالنار».

ابتعدت فانيسا عنه باتجاه الطاولة. وضعت الكتاب الذي كان بيدها ثم عادت نحوه وهي تقول:

«اسمع. يبدو انك خرجت عن حدودك. انا اشكر لك مساعدتك في الكتب، لكنني متأكدة من قدرتي على الاستغناء عن خدماتك اذا كنت سأضطر الى مراقبتك طوال الوقت. هل كلامي واضح؟».

التمعت عيناها بالغضب وامتلأ خداها بالدم، وهي تقف بتحد وثقة بالنفس بينما كان لوري يقترب نحوها.

في هذه اللحظات بالذات دخل كال الغرفة. فخيّم جوّ من الصمت المتوتر لثوان معدودة، قطعه كال بصوته العميق قائلا:

«جئت لأرى ان كان كل شيء على ما يرام».

استدارت نحوه قائلة:

«الأمور ممتازة، شكراً لك».

حاولت الابتسام، لكنها لم تستطع. في حين كان كال يوجه نظرة حديدية الى لوري.

«هل واجهت اية متاعب مع الكتب؟».

قابل لوري نظرة كال بقسوة اشد... وفكرت فانيسا التي كانت تراقب المشهد بانهما اشبه بكلبين في شارع مهجور، كل منهما يزن قوة الآخر ويستعد للهجوم في اية لحظة.

«لا متاعب على الاطلاق. وامورنا تسير على خير ما يرام».

وحاولت ان تضع ابتسامة معبرة على وجهها. فقد قررت بينها وبين نفسها ان تثبت في موقعها وتنتظر ما سيحدث، لأن ما يجري الآن لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد.

هز كال رأسه دون ان يعبر وجهه عن مشاعره.

«حسناً، سأترككما تكملان العمل».

ثم غادر المكتبة وهو يحاول ان يسيطر على اعصابه الثائرة. وعندما اغلق الباب التفت لوري الى فانيسا وافلت صفيراً متقطعاً.

قال لوري:

«حظنا جيد انه لم يدخل قبل ثوان. ترى ماذا كان سيفعل لو رآني وانا اعانقك؟».

«لست ادري».

ثم اضافت وهي تحاول اخفاء دهشتها:

«كنت تفضل ذلك! فعندها سيقع الشجار بينكما وهذا ما تريده!».

انقبضت عضلات وجهه وهو يقول:

«اتمنى الفرصة المناسبة لضربه... اذا كان هذا ما تقصدين!».

عقدت فانيسا حاجبيها وقالت:

«اذن من الأفضل ان احذّرك، لقد تعرضت وانا في طريقي الى هنا لمشكلة مع شابين يركبان الدراجات النارية. واستطاع كال ان يطيح بهما ارضاً بلمح البصر مع ان احدهما كان يحمل زجاجة فارغة. لم ار مثل ذلك المشهد في حياتي، واتمنى ان لا ارى مثله في المستقبل. وحتى لو كنت تكرهه فيجب الا تستهين به، فهو اقوى بكثير مما يبدو عليه».

اجاب لوري بنعومة:

«استطيع تدبر امري معه. فقط اريد الفرصة المناسبة».

راقبته فانيسا جيداً. انه قوي وصلب العود. ترى لماذا يرغب الرجال في القتال دائماً؟ ولماذا يحلون جميع المشاكل بالقوة الجسدية؟ احست بانها تعبت من هذه الأجواء التي اصبحت مزعجة للغاية، ولعل احداث الأمس، او ما كاد يحدث بالأمس، هي مصدر تعبها.

وحتى حلول موعد الغداء، كان سلوك لوري سلبياً. جهز عشرات الكتب بحيث لا تضطر فانيسا الى تناول اي منها طيلة اليوم مهما عملت بسرعة. ولم يحاول ابداً ان يلمسها ولا ان يقترب منها. وقبل دقائق من الساعة الواحدة قال:

«سوف اذهب الآن، ولكني سأعود صباح الغد اذا لم يكن عندك مانع؟».

اجابت

«شكراً لك. السيد ماكلين سيكون هنا في ذلك الحين، فهل تعتقد انه يمانع؟».

«هو الذي اقترح الفكرة اساساً». واضاف مبتسماً «عندما يراك سيدرك فوراً لماذا غيّرت رأيي. فهو معجب بالنساء الجميلات ايضاً».

لكن مزاجها لم يكن ليتقبل الاطراءات:

«اذن، اراك صباح غد. يجب ان اذهب الآن واستعد للغداء».

خلعت الرداء الواقي ووضعته على الكرسي قبل ان يتحرك لوري لمساعدتها. ثم خرجا معاً من المكتبة.

كانت غرفة الطعام خالية تماماً عندما دخلتها فانيسا بعد عشر دقائق واول ما لاحظت كان وجود كرسيين فقط حول الطاولة. خفق قلبها بطريقة

غريبة، اذ هذا يعني ان جدها لم يأت بعد. جلست في المكان الذي شغلته امس، فأحست بموجة عارمة من الوحدة تجتاح نفسها. فجأة دخل كال غرين الغرفة، فبذلت جهداً كبيراً كي تخفي الأسى الذي كان واضحاً في عينيها.

جلس كال في مواجهتها وعلى وجهه تعبير غريب وفي عينيه نظرة متفحصة وكأنه يعرف ما الذي جرى في المكتبة. واخيراً حطمت كلماته جدار الصمت:

«انا متأسف اذا كنت قد دخلت عليكما في الوقت غير المناسب». ولكن فانيسا لم تجد في صوته ما ينم عن الأسف فعلا.

اجابته بهدوء:

«لا ابداً، كنا مشغولين في ترتيب الكتب، هذا كل شيء».

«هل كنتما فعلاً؟ بدا لي ان في الجو نقاشاً حاداً... لكن المسألة لا تعنيني على اي حال».

اجابت موافقة:

«معك حق، المسألة لا تعنيك ابداً».

في تلك اللحظة دخلت السيدة بانكس، فقطعت ما كان كال على وشك ان يقول. تركت لهما الحساء وبعض الخبز، وقالت:

«سأعود بعد دقائق. الغداء اليوم فطيرة بالجبنة، فاستعدا لها».

فكّرت فانيسا: لو كنت هنا مع شخص آخر لضحكنا على طريقتها في الكلام، لكن هذا الشخص العدواني... لماذا هو هكذا، لماذا؟

انحنت نحو طبق الحساء الذي كان ساخناً جداً، وما ان لمست الوعاء حتى سمعت زعيقاً حاداً من الخارج فقفزت خوفاً واضطراباً. اصطدمت بالطاولة فاهتز الطبق وانسكب الحساء الساخن على يدها اليمنى. اطلقت فانيسا صرخة الم عالية وهي تحس حرارة الحساء تلسع يدها بشدة. ركض كال نحوها وامسك معصمها بيده وسكب محتويات ابريق الماء على الجزء المصاب. طلب منها بصوت آمر ان تجلس وتضع رأسها بين ركبتيها فوراً. اطاعته دون اية مقاومة وسمعته يقول:

«سأحضر بعض الاسعافات الاولية، دقيقة واحدة فقط».

عادت اليها موجة الالم اشدّ مما كانت، ولكنها لم تتحرك من الكرسي.

كان صوته آمراً بحيث لا تستطيع ان تخالفه. لم يغب كال سوى لحظات معدودة عاد بعدها وهو يحمل صندوقاً وضعه على الطاولة وفتحه بسرعة... ثم اخرج مرهماً اصفر اللون ودلك به الجزء المصاب.

قال لها وهو يواصل التدليك:

«الصرخة التي سمعتها هي صوت الطاووس. صحيح انه يصدم الانسان للوهلة الأولى لكنك ستعتادين عليه بسرعة».

«طاووس!».

تساءلت بصوت هامس وهي تضغط على شفتيها لتحبس صرخة ألم.

«هذا أفضل، اليس كذلك؟».

كان كلامه بارداً وهادئاً، وقد اختفت العداوة بينهما على الأقل لبعض الوقت.

«اجل، شكراً لك».

نظرت الى الطاولة، فصدمتها الفوضى التي سببها الحادث. شعرت بالدموع تطفر الى عينيها وهي تقول:

«انا آسفة».

قاطعها وهو ينظر بدوره الى الطاولة.

«لا تهتمي، فالسيدة بانكس سترتب كل شيء في لحظات».

قالت له معتذرة:

«لم تتناول حساءك بعد».

كان يلف قطعة من القماش حول يدها، في حين بدأ الألم يخف بفعل الدواء الذي وضعه. اجاب قائلا:

«انه كان ساخناً جداً. هل تريدين ان احضر لك صحناً جديداً؟».

هزت رأسها:

«كلا، سأكتفي بقسم من الفطيرة... فانا لست جائعة تماماً».

«بالطبع، هل تنوين الراحة في غرفتك لبعض الوقت؟».

نظرت اليه بحدة عندما احست السخرية في صوته. استغرب نظرتها وقال:

«ما الأمر؟».

هزت فانيسا رأسها المتعب:

«لا شيء. اعتقدت انك..».

قاطعها بابتسامة لطيفة:

«اسخر منك؟ كلا. لقد شحب لونك من جراء الصدمة. لا احد يمانع في ان تأخذي قسطاً من الراحة ولو لنصف ساعة».

«كلا، شكراً لك. سأشعر بتحسن كبير بعد ان آكل».

لكنها بدأت ترتجف، ولم تستطع ان تخفي الحقيقة.

وضع ذراعيه على مرفقيها ورفعها عن كرسيها قائلا:

«من هنا، انتقلي الى الكرسي الآخر واحضري معك طبق حسائك».

وكانت فانيسا اضعف من ان ترفض اوامره.

احست بالدفء والشبع عندما تناولت الحساء الذي اصبح فاتراً.

احضرت السيدة بانكس الفطيرة، ولما شاهدت فوضى المائدة طلبت منها الانتقال الى ناحية اخرى حتى تنظف الطاولة وتعيد ترتيبها، ففعلا بدون تردد.

اشتد الألم في يد فانيسا التي اعتقدت انها استطاعت اخفاء الحقيقة عن الرجل الجالس قبالتها والذي لم يعد يظهر علامات العداء المعتادة تجاهها.

بعد ان انهيا الأكل، اتجه ناحية فانيسا وقال:

«هيا بنا، سنتناول القهوة في الصالون».

«أجل».

تمايلت قليلا عندما وصلت الى الباب، وسمعت صوته وكأنه قادم من البعيد... ثم احست بدفء يده على ذراعها.

همس في اذنها:

«لماذا انت عنيدة الى هذا الحد؟».

وبالرغم من انها فهمت ما يقصد الا انها قالت:

«لم افهم ما تعني تماماً؟».

وعلى طول الطريق من غرفة الطعام الى الصالون كانت الجدران تتمايل امام ناظريها... وكم شعرت بالفرح لأن ذراعه القوية تسندها.

قالت وهي تنظر اليه بعد ان اجلسها في المقعد:

«انني على ما يرام».

ولم تستطع اخفاء دموع الألم. ودون ان ينبس ببنت شفة استدار مغادراً

الصالون وتركها وحدها.

اعتقدت انها ازعجته، فرحل. قالت لنفسها: هذا ممتاز. لكنه عاد بعد اقل من دقيقة حاملا فنجانين من القهوة. قال وهو يضع الفنجان على الطاولة القريبة منها:

«سآخذك الى الطبيب في القرية. اشربي قهوتك، ثم نتوجه اليه».

«لكني لا...».

«ارجوك بدون نقاش».

ثم اضاف بلطف:

«سنذهب اليه حتى لو اضطررت لحملك الى السيارة».

نظرت الى فنجانها ثم تناولته ببطء. لا شك انه يعني كل كلمة قالها. وهي تعرف انه سينفذ وعيده. وابتسمت في سرها عندما تصورت نفسها «محمولة» بين ذراعيه الى السيارة.

«حسناً».

واغمضت عينيها بالم عندما رشفت جرعة كبيرة من القهوة الحارة.

«هل تريدين سيكارة»؟

«انا لا ادخن الا نادراً... شكراً لك».

سمعت صوت الولاعة، ثم شمت رائحة التبغ المحترق.. لكنها لم تستطع ان تنظر اليه. ولسبب غير معروف اخذ قلبها يخفق بسرعة غير طبيعية، لدرجة اعتقدت معها انه سيسمع دقاته اذا ما رفعت عينيها اليه.

كان رأسها ساخناً، وتساءلت اذا كانت حرارتها قد ارتفعت بسرعة.

وضعت يدها على جبينها فأحست به مشتعلا.

«هل انت على ما يرام»؟

بدا لها صوته وكأنه آت من مسافة بعيدة جداً، او كأنها على وشك الاصابة بالصمم... رفعت رأسها بسرعة فوجدته وقد اقترب لتناول فنجان القهوة من يدها.

«لا بأس.. لا بأس. فقط...».

لم تستطع ان تبلع ريقها. يا الله، ما الذي يحدث لها؟ بدت الغرفة لناظريها سابحة في ضباب رمادي كثيف، ورفعت يدها في محاولة يائسة للتمسك بأي شيء.. ثم احست بيد تمسك يدها وسمعت صوت كال آتيا

من البعيد البعيد. . . لكنها لم تسمع كلمة مما قاله.

افاقت بعد فترة لتجد نفسها ممددة على المقعد المجاور. فتحت عينيها ببطء فوجدت كال واقفاً بالقرب منها. التقت عيونهما. قال لها:

«لم يحدث شيء، اغمي عليك فقط. فلا تقلقي».

قالت فانيسا:

«لم يحصل ان اغمي علي من قبل».

ابتسم برقة وهو يقول:

«لقد بدأت الآن. ارتاحي هنا لعدة دقائق ثم نذهب الى الطبيب».

لا تريد ان تذهب في سيارته، انها لا تعرف لماذا، ولا تستطيع ان تقول له ذلك ايضاً لانه هدد بحملها بالقوة اذا رفضت. بدأت قوتها تعود اليها وصارت قادرة على التفكير بوضوح. بعد عدة دقائق نظرت اليه قائلة:

«انا جاهزة الآن».

«اذن سنذهب الآن. فكلما اسرعت بمعالجة الجرح، كان الشفاء اسرع».

انتظرت فانيسا في البهو الداخلي في حين توجه كال لاحضار السيارة الى الباب الامامي. سمعت صوت عجلات السيارة، فغادرت الباب بتأن لانها لم تكن قد استعادت توازنها كاملا.

بعد دقائق كانا معاً على الطريق. وكان كال يقود سيارته بسرعة معتدلة. سألته عندما اقتربا من الطريق الرئيسي:

«كم تبعد القرية عن البيت؟».

«حوالى ثمانية اميال. بعد قليل سنصل اليها. هل عاودك الألم؟».

رسمت على شفتيها ابتسامة شجاعة وقالت:

«ليس قوياً. لم يحصل ان اغمي عليّ من قبل. هذه اول مرة».

«ربما لم تصابي في الماضي بالأذى كما اصبت اليوم. فالاغماء رد فعل طبيعي من الدماغ ضد الاصابات».

«هل حدث ان أغمي عليك من قبل؟».

ركز نظره عليها وكأنه يحاول استكشاف خلفيات السؤال. ثم ابتسم قائلا:

«نعم. مرة واحدة. . لكنني لن اخبرك عن تفاصيلها، ليس الآن في اي

حال».

استغربت فانيسا كيف ان التوتر قد زال بينهما، ولكنها احست بشيء غير طبيعي وهما في طريقهما الى القرية. وعدلت من جلستها عندما تذكرت انها في السيارة نفسها مع الرجل الذي تكرهه، وانها اجبرت على مرافقته بالرغم من قرارها بعدم الاقدام على ذلك ابداً. ووجدت نفسها تنتظر شيئاً ما لا تعرف طبيعته.

واخيراً سمعت ما كانت تتوقعه قال فجأة دون ان يرفع نظره عن الطريق.

«سيأتي صاحبنا صباح غد، وليس اليوم كما كان المخطط؟».

عرفت على الفور من المقصود بكلمة «صاحبنا»، لكنها تساءلت كما لو انها فوجئت:

«من؟ السيد ماكلين؟».

التفت اليها بطرف عينيه وقال:

«ومن غيره؟ انه صاحب العمل. اعتقدت انك تريدين معرفة موعد حضوره!».

«طبعاً. . طبعاً».

خفق قلبها بسرعة اشد. كان هناك شيء ما في كلماته لم تستطع ان تعرف معناه. لذلك كان عليها ان تفكر ملياً قبل ان تتكلم، خاصة ان الألم اخذ يزداد ايضاً.

«لكنك قلت انه سيعود اليوم!».

«كان من المفروض ان يعود ظهراً، لكنه اضطر للتأخر، هل قلت انك لم تقابليه من قبل؟».

ما الذي عناه بسؤاله هذا؟ نظرت فانيسا الى الأشجار المتناثرة خارج السيارة، ولم تلاحظ انها كانت تضغط على معصمها المصاب. وفجأة عادت الى الواقع وقالت:

«كلا لم اقابله. كيف يمكن ذلك وانا جئت من لندن؟».

«اعرف انك من لندن وان اسمك فانيسا كولينز».

تجمدت فانيسا عندما رأته يبتسم وهو ينطق هذه الكلمات. لقد شدد كثيراً على كلمة كولينز، ولا شك انه تعمد الأمر.

شعرت بخوف غامر استمرّ للحظات فقط، ثم تنفست بعمق. هل يمكن ان يكتشف الحقيقة؟ لا، فهذا مستحيل. لكنها تتمنى الآن لو انها لم تأت ابداً. بدأت يدها تنتفض من الألم، لم تعد قادرة على التعامل مع هذا الرجل المزعج خاصة في مثل وضعها الحالي... بل لم تعد قادرة حتى على ايجاد الأجوبة اللازمة.

ومع ذلك حاولت:

«نعم. واسمك هو كال غرين، اسم غريب حقاً».

«أجل اسمي الكامل كالوم غرين، ابي اسكتلندي وامي رومانية».

اثار هذا الاكتشاف اهتمام فانيسا برغم انشغالها بامور اخرى ورأت فيه مناسبة لابعاد كال عن الموضوع الاساسي:

«تقصد ان نصفك روماني؟».

هز رأسه علامة الايجاب. كان عليها ان تلاحظ ان نصفه الجنوبي من خلال فكه العريض وشعره الأسود وعينيه الناريتين الحادتين اللتين استطاعتا ان تغوصا في اعماقها.

«لا!» لكنها لم تعرف لماذا قالت هذه الكلمة.

«لا ماذا؟».

«لا شيء، لا شيء».

وهربت من عينيه الى الأشجار في الخارج.

«وماذا عن والديك؟ الى اي بلد ينتميان؟».

كان مجرد سؤال تقليدي في مثل هذه المناسبة، لكن تصرفات كال جعلتها تشك في كل كلمة يقولها.

تنفست بعمق وقالت «امي...» لكن القصة التي رددتها عشرات المرات في سرها تبخرت دفعة واحدة. تحول رأسها الى صفحة بيضاء خالية. رفعت يدها الى جبينها. لم يعد عندها سوى سلاح واحد:

«انا آسفة.. ان يدي تؤلمني بشدة».

كان ادعاؤها حقيقياً، ولو بشكل جزئي. على الأقل سيعطيها بعض الوقت للتفكير. وحتى هو لن يعمد الى ازعاجها اكثر. ترى هل يفعل؟

ومع انه لم يصدقها، فقد تصرّف بشكل مغاير تماماً. زاد سرعة السيارة فوراً وقال:

«سنكون هناك خلال دقيقة فقط».

وألقت فانيسا رأسها على المقعد تأخذ قسطاً من الراحة. هي تعرف انها هدنة مؤقتة.. لكن كم من الوقت ستدوم؟

كان الطبيب من النوع الصامت، وعندما خرجت فانيسا من عيادته كان الألم قد خف بشكل كبير. كتب لها وصفة طبية واعطاها بضع حبات من الدواء وامرها ان ترتاح لعدة ايام.

في القاعة الخارجية جلس كال على احد المقاعد الخشبية ينتظر انتهاء الطبيب. نهض واقفاً عندما برزت فانيسا وسألها:

«هل تشعرين بانك أفضل؟».

«أجل. شكراً لك. قال لي انك فعلت المناسب عندما سكبت الماء البارد على الحرق، فهذا سيمنع ظهور ندوب دائمة. على كل يجب ان ارتاح لعدة ايام ثم تعود يدي الى طبيعتها».

«اذن يجب ان نجد لك وظيفة اخرى غير المكتبة؟».

قال هذه العبارة مازحاً وهو يفتح لها الباب. نظرت اليه بحدة:

«لا ابداً، فانا اكتب باليد اليسرى. لقد اعطاني الطبيب وصفة، فهل هناك صيدلية قريبة؟».

«في الطرف الآخر من القرية. سأحضر السيارة».

«الا تستطيع ان تسير اليها؟».

«هل تشعرين بقوة كافية للسير؟».

التفتت فانيسا اليه بسرعة. هل كانت هناك تلك النغمة الساخرة ام ان خيالها يزيّن لها الأمور كالعادة؟

«اعتقد ان السير في مثل هذا النهار الجميل سيفيدني».

وكانت على حق. فالشمس تطل وسط سماء صافية تماماً. الى يسارهما بحيرة واسعة، والى اليمين صف لا ينتهي من البيوت الريفية الضائعة وسط الحدائق.

«حسناً، هيا بنا».

سارا معاً فوق الشارع غير المعبد في اقسام كبيرة منه، ولم تزعجهما حركة السير. حاولت فانيسا الانشغال عن الغريب الذي يسير الى جانبها بتأمل الريف الممتد حتى حدود التلال البعيدة. كانت المنطقة اخاذة بحيث تمنت

فانيسا ان تمضي عمرها كله هنا.

«انه منظر ساحر، اليس كذلك؟».

فوجئت بكلامه، وتساءلت.

«اي منظر».

«هذه المنطقة، الريف كله، لقد لاحظت التأثير الذي تركه عليك لاول مرة».

«اجل، انه رائع».

لكنها شعرت بالقلق، لماذا يتصرّف بهذا الشكل المكابر؟ لقد استطاع فعلا ان يقرأ افكارها. لماذا يجب ان يكون هنا الآن... هنا في ديستون هاوس؟ ليس بالامكان ان تحصل على جواب كاف، لكن عليها ان تكون حذرة للغاية معه. وحتى تسترجع شجاعتها المهزوزة قالت شيئاً ارادت ان تقوله قبل دقائق:

«اشكرك جداً لانك احضرتني الى الطبيب، فقد فعلت عين الصواب».

«لا بأس على الاطلاق»..

وابتسم بعمق وهو ينظر اليها، فقفز قلبها في صدرها عدة قفزات متتالية. والآن لماذا انفعلت هكذا؟ فكرت في نفسها. انه انسان كريه بالفعل، لكنه يتغيّر تماماً عندما يبتسم. فهو يستطيع ان يكون جذاباً اذا ما اراد. وما حدث بعد ذلك جعلها تتأكد من الأمر اكثر... ولكنها... لم تكن قادرة على توقع الأمور.

انتظر كال حتى وصل الى نصف الطريق المؤدي الى البيت، تقريباً في النقطة التي اشار عندها الى فانيسا للتوقف مساء امس، وتوقف فجأة فالتفتت فانيسا اليه خائفة.

«اعتقد انك ستعجبين بالمشهد من هنا، فالمرتفع يؤمن رؤية اوسع».

وعلى الفور شكت فانيسا بنواياه، خاصة عندما تذكرت الاسئلة التي طرحها قبل ان توقفه بحجة الألم في يدها. الآن لا تستطيع ان تفعل شيئاً. انتظرت حتى خرج كال من السيارة واستدار ناحيتها وفتح الباب لها، فخرجت. في الاقل لا وجود للعداء في تصرفاته، ولكن الشك يسيطر عليها. هناك طريقة واحدة للتصرف: البرودة المطلقة.

«شكراً لك».

ابتسمت وهي تغادر السيارة فكانت الابتسامة نفسها التي كانت تجعل السيد مورتون يقع في حبها.

رد كال ابتسامتها باحسن منها. كانت عيناه صافيتين ووديتين. قال بهدوء وثقة:

«هذا افضل. ليس من المناسب ان تمضي الوقت كله في الشجار، اليس كذلك؟».

وافقت فانيسا:

«طبعاً».

ثم التفتت حولها وقالت: «اين..؟».

اشار مقاطعاً:

«هناك. اذا صعدنا التلة سنشاهد اروع مشهد في كل اسكتلندا، على الاقل حسب رأيي. هل يمكنك الصعود؟».

كان السؤال بلهجة قلقة وكأنه فعلا يهتم بها... وقد بدأت فانيسا تعتقد بانه قلق عليها حقيقة.

«اجل». وسارا صعوداً نحو التلة تاركين خلفهما شجيرات عديدة، وحشائش بدأت تخضر مع الربيع المقبل، وبعض الازهار البرية المتناثرة هنا وهناك. استنشقت فانيسا نسيم الربيع الممزوج بعبق البحر وهي تقطع المسافة القليلة المتبقية. وعندما وصلت الى القمة تسمّرت في مكانها وعلى وجهها علامات الاعجاب العميق.

قالت باندهاش:

«انه رائع... انه رائع جداً. اليس كذلك؟».

كانت التلال تمتد تحتهما في كل اتجاه حتى شاطىء البحر، واللون الاخضر الغامق يغطي كل شيء... وفي المدى البعيد وقفت صخور جبارة امام زحف الموج الذي كان يرتدّ عنها تاركاً في الجو رذاذه الابيض الهائل.

ونظر كال اليها وابتسم مجدداً، وتساءلت لماذا يبذل كل هذا الجهد. فجأة قال لها:

«انا اعرف ان اسمك ليس فانيسا كولينز». ثم اضاف بهدوء:

«فما هو اسمك الحقيقي؟».

٤ - عشاء مع الغريمة

صعقت فانيسا عند سماعها كلام كال، واحست بالضياع لثوان خيل اليها انها ساعات... لكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة وتذكرت النصيحة الذهبية: الهجوم هو افضل وسيلة للدفاع.

استدارت ببطء نحوه وقد زال الخوف من نفسها.. فهي لن تترك هذا الرجل يفسد عليها المخططات التي اعدت لها منذ مدة. بدا عليها الهدوء التام، كيف لا وهي تملك اسلحة لم تستعملها بعد ولا تعتقد انه يستطيع مواجهتها. انوثتها هي احد اهم الأسلحة. ويمكنها دائماً ان تستعمل سحرها النسائي حتى النهاية. ولكن الوقت لم يحن بعد. الآن عليها ان تستفز مشاعر الغضب في نفسها رداً على اتهاماته الباطلة. فهذا هو الموقف الصحيح لو كانت فعلاً بريئة من تلك الاتهامات.

وخرجت الكلمات قوية وهادئة:

«عفواً، ماذا قلت؟ هل جننت ام انك مجرد انسان وقح؟».

وقف كال قبالتها واضعاً يديه في جيبي سرواله وقال:

«محاولة جيدة. ادعاء الغضب يناسبك تماماً».

ارتفعت درجة التوتر عند فانيسا، ولكنها جاهدت للحفاظ على هدوئها. من الأفضل الا تفقد اعصابها. وعليها ان تستمر في التمثيل لئلا تقول شيئاً تندم عليه فيما بعد، خاصة اذا ارادت مواجهة هذا الرجل.

كان كال يراقبها وقد تضرج خداها واخذت تتنفس بسرعة، لكنه لم يبد اية مشاعر، وظلت ملامح وجهه القوية الصلبة ساكنة وهادئة.

«لقد اطلقت اتهامات سخيفة، فهل يمكن ان توضح كلامك؟».

بدت ملامح ابتسامة على وجهه:

«طبعاً، انت تذكرين تفاصيل لقائنا الأول؟».

«وهل يمكن ان انساه؟ انت تشير اساساً الى الطريقة الفظة التي سألتني فيها عن اسمي».

«هل كنت فظاً؟ حسناً، ربما... لكنني كنت غاضباً منك».

فقاطعته بصوت ناعم:

«يظهر انك تريد ان تخبرني قصة حياتك! فاذا كنت...».

«لا، لن اخبرك قصة حياتي. انت التي سألت. لم تستطيعي حتى ان تتذكري اسمك».

«لقد ذكرت لك السبب. فأنا لا اخبر الغرباء عن...».

«دعك من هذا. اي غريب انا؟ فقد انقذتك لتوي من موقف صعب. فلماذا يجب ان تخافي مني؟».

«كنت متوترة جداً. وساكون ممتنة اذا ما سمحت لي بانهاء جملة واحدة اقولها».

واندمجت في دورها الجديد مما اعطاها دفعة كبيرة من الثقة بالنفس.

«لنقل انني لم ارد ان اعطيك اسمي الحقيقي. هذا كل ما عندي من دفاع. انت اسوأ انواع الناس، لأنك تختار الأوقات غير المناسبة حتى تطرح اتهاماتك السخيفة. هذا طبيعي منك، وانا اجد ان ملاحظاتك مهينة ولن ابقى هنا دقيقة واحدة، ويمكنك ان تستمتع بالمشهد وحدك».

ثم استدارت وتركته خلفها مصممة على الرجوع الى السيارة، بل حتى السير الى البيت اذا رفض نقلها بعربته. المهم ان تحافظ على مظهر الثقة. اذ حتى لو كانت ترتعد داخلياً، فما دامت قادرة على اخفاء الأمر، فإن عندها فرصة كبيرة لربح المعركة. وهذه كانت معركة بالفعل، بين شخصيته الصلبة الاستفزازية وبين موقفها دفاعاً عما تعرفه ويجهله هو.

لحقها كال على الفور. لم ينتظر ابداً، بل قفز التلة بخطوات عريضة ثم امسك بذراعها وجمدها في مكانها. ولم يكن امامها الا الوقوف. استدارت اليه وقد امتلأت بالغضب الحقيقي هذه المرة.

«ابعد يديك عني ايها الخبيث».

ضاقت حدقتا عينيه وهو يقول:

«ان لك مزاجاً صعباً للغاية».

«معك انت؟ اجل... انت مقرف».

فجأة اطلق ضحكة عالية مجلجلة. نزعت فانيسا ذراعها من قبضة يده باقصى ما تملك من قوة، وصرخت:

«انت حقير... حقير.. دعني لوحدي».

وانفجرت باكية رغماً عن ارادتها، فأسرعت تركض نحو السيارة والدموع تحجب عنها الرؤية الواضحة. كان كل شيء يسبح في ضباب خفي وكأنها في حلم. انتظرت في السيارة حتى يأتي كال ويسحبها الى الخارج. لم تعد تهتم بشيء. انه انسان حقير.

احست به في المقعد المجاور، دون ان تراه بسبب دموعها. وعندها قال:

«حسناً جداً. لقد اوضحت ما تريدين. بربك اوقفي هذا النحيب!».

قطعت المفاجأة بكاءها. تمخطت بمنديل ورقي وقالت:

«لقد اجبرتني..».

واخذت تبحث عن منديل اخر في حقيبة يدها.

«هاك منديلي».

فأخذته ومسحت به دموعها وانفها. وفكرت في نفسها:

«كم اكرهه الآن!».

وجاهدت كي لا تطلق الجملة في وجهه.

سمعته يدير الة التسجيل، فانسابت موسيقى خفيفة في السيارة. خفف كال الصوت قليلاً وقال لها وقد التقت عيناه عينيها الدامعتين:

«حسناً ايتها القطة المتوحشة. خففي من روعك الآن».

وتساءلت في نفسها عن رد فعله فيما لو ضربته بقوة. وكانت الرغبة عميقة بحيث اضطرت للتشبث بحقيبة يدها كي تمنع نفسها من الضرب. ولأنه لم يتوقع جواباً منها، ادار محرك السيارة وانطلق بسرعة فائقة عائداً الى دينستون هاوس. واستقرت فانيسا في مقعدها ويداها تضغطان على المنديل والحقيبة. انها منهكة للغاية وتريد بعض الراحة بالحاح.

وعندما استلقت فانيسا في سريرها ذلك المساء، وقبل الاستعداد لتناول العشاء، عادت الى ذاكرتها احداث اليوم بشكل مؤلم واضح. لقد

استطاعت منع نفسها من التفكير بعد عودتها الى دينستون هاوس، اذ رفضت اقتراح كال بأخذ قسط من الراحة وتركته فور دخولها البيت وأمضت طيلة بعد الظهر في المكتبة. وبحلول الساعة الرابعة احضر لها فنجان القهوة بنفسه وسألها اذا كانت تشعر بالألم، ثم تركها. كانت تعابير وجهه آنذاك هادئة وخالية من القسوة التي ابداها عند التلة.

لم تعد قادرة على التمثيل الآن، فقد هاجمتها مخاوفها دفعة واحدة وهي مستلقية في سريرها. من الواضح انه يشك فيها. لكن باية طريقة؟ لقد قال - وجاهدت لتنظيم افكارها المشوشة - ماذا قال تحديداً؟ «انا اعرف ان اسمك ليس فانيسا كولينز.. فما هو اذن؟» تنفست بعمق وهي تسترجع كلماته حرفياً، وكذلك تعابير وجهه التي رافقت تلك الكلمات. كان يتكلم بتهكم واضح، وفي عينيه نظرة تؤكد انه يعرف كل شيء... بحيث زرع الرعب في قلبها.

واخذت تزن الأمور بمنطق. ما قاله لا يعني انه اكتشف الحقيقة فعلاً. يمكن ان يعتقد انني امرأة متزوجة وهاربة من زوجها. والأرجح انه يفكر هكذا. نظرت الى يدها، فلم تجد اثراً للخط الأبيض الذي يتركه خاتم الزواج. وفجأة نهضت من السرير وتوجهت الى علبة مجوهراتها الموضوعة على طاولة الزينة وقلبتها بحثاً عن خاتم ذهبي كانت تفتن به دائماً. ولما وجدته وضعته في اصبعها وابعدته عن وجهها لتتأمله ملياً. هذا الخاتم سيفي بالغرض وعليها ان ترتديه دائماً منذ الآن، وعندها لن يلاحظ غياب العلامات الصغيرة. وقبل ان تستعد للعشاء انتزعت الخاتم من اصبعها ودخلت لغسل يديها.

تزينت جيداً وارتدت زياً رمادياً فضفاضاً وطويلاً يبرز قوامها الرشيق ويجعلها تبدو اكثر اناقة وسحراً. حسها يقول لها بأن كال سيثير الموضوع الليلة وقبل عودة جدها غداً، اذا كان فعلاً سيواصل تحقيقاته عن شخصيتها.. والأرجح ان يحدث ذلك على العشاء. فاذا ما بدت بأحلى حالاتها، فستحصل على دفعة كبيرة من الثقة بالنفس هي بأمس الحاجة اليها.

وقفت امام المرآة لتضع اللمسة الأخيرة من ظلال العيون واحمر الشفاه. انها صارخة الجمال، ولكن جمالها لم يكن مصدر سعادة دائماً، بل كثيراً ما

سبب لها المشاكل بحيث وجدت نفسها تحسد صديقاتها ذوات الجمال العادي، فهن لا يواجهن مصاعب كثيرة، ومع ذلك لا يقدرن هذا الوضع. تنهدت مطولاً وهي تضع احمر الشفاه. انها مستعدة للعشاء الآن.

القت نظرة اخيرة على الغرفة ثم اطفأت الأنوار ونزلت الى غرفة الطعام. وجدت كال في الغرفة مع اناس آخرين هذه المرة. استعادت رباطة جأشها بسرعة بعد صدمة المشاهدة الأولى. على الأقل لن يقدم على خلق المشاكل امام الناس. كانت هناك امرأتان، ام وابنتها على الأرجح، تجلسان الى الطاولة التي اعدت لأربعة اشخاص. شاهدها كال فنهض لملاقاتها.

«ها قد وصلت اخيراً».

قال العبارة وكأنه انتظرها طويلاً. ثم توجه نحوها لمرافقتها الى المائدة. تنفست فانيسا بعمق لأن شيئاً ما اشعرها بوجود جو عدائي في الغرفة موجه ضدها شخصياً.

«السيدة ماكري، هيثر، هذه فانيسا كولينز. وهاتان صديقتان للسيد ماكلين».

تقدمت فانيسا نحوهما ويد كال على ذراعها. لم يتردد عندما نطق اسمها، بل ذكر اسمها الأول وكأنه اعتاد عليه. مدت يدها اليسرى للسلام لأن اليمنى ما تزال مضمدة. تأملتها السيدة ماكري ملياً بعينيها الزرقاوين الحادتين وسط وجه جميل جذاب.

«كيف حالك يا آنسة كولينز، لقد تأسفنا للاصابة التي لحقتك اليوم. هل تشعرين بتحسن الآن؟».

كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً من الساتان السميك بلون بنفسجي فاقع، وتساءلت فانيسا في نفسها اذا كانت هذه السيدة تعرف ان اللون لا يناسبها ابداً. اما الأبنة فقد كانت مختلفة تماماً. وعندما التفتت فانيسا اليها ادركت على الفور من اين جاء جو العداء ضدها. لم تكن هيثر ماكري مجرد شابة جميلة، فتفاصيل وجهها الأشقر كانت كاملة ابتداء من العينين الناعستين تحت رموش كثيفة حتى الشفتين المكتنزتين الحمراوين، وقد تركت شعرها الأشقر الطويل منسدلاً على كتفيها وعقدته بربطة حريرية زادتها انوثة وشباباً. كما ساهم ثوبها الزهري المفتوح في ابراز هذه الصورة.

ابتسمت لفانيسا .. وكأن لسان حالها يقول: «حسناً، انا لا احبك!».

قالت بنعومة وحياء:

«مرحبا، لقد اخبرنا كال...». ونظرت الى الرجل الطويل الواقف الى جانبها: «...عن الحادث الصغير الذي وقع لك. انه حادث مؤسف».

لكن المعنى وراء هذه الكلمات كان واضحاً بالنسبة لفانيسا التي بدأت تتمنى لو انها بقيت في غرفتها. المعنى يقول بوضوح: «ان كال لي انا، فراقبي تحركاتك. وانا مسرورة جداً للحرق الذي اصاب يدك».

ردت فانيسا بابتسامة مصطنعة.

«شكراً لك».

لقد اعتادت على مثل هذه المواقف العدائية، اما اذا اعتقدت الشابة الشقراء ان فانيسا تريد الاستيلاء على كال فهي مخطئة تماماً. على الأقل، كال لخصم على مستوى ما، وهو افضل من هذه الشقراء النحيفة التي تبدو اكبر من فانيسا بحوالي السنة، والتي ينبىء شكلها عن الثراء الفاحش الذي يحمل الثقة المبالغ فيها الى بعض الناس.

توجه كال الى خزانة الحائط ثم التفت نحو فانيسا وسألها:

«ماذا تشربين؟».

اجابته قائلة:

«عصير التوت رجاء».

آه لو يظل لطيفاً كما هو الآن، فالحياة تكون رائعة عندها. ولن تجد فانيسا ما تشكو منه.

دخلت السيدة بانكس حاملة طبق الحساء. وأمضى الجميع دقائق في ترتيب مقاعدهم. ثم ادركت فانيسا ان السيد ماكلين يجب ان يكون هنا على العشاء والا فكيف تفسر حضور هاتين الضيفتين. وقد تأكد ظنها من خلال الحديث الذي جرى على العشاء بين كال والسيدتين في حين ظلت فانيسا مستمعة. فقد قررت بينها وبين نفسها ان تتصرف بهدوء وان لا تتكلم الا اذا خاطبها احد الحضور. فهي غريبة هنا ومجرد موظفة، والآخرون كما هو واضح يعرفون بعضهم جيداً. لو انهم يعرفون الحقيقة، لذابت الابتسامة على شفتي هيثر.

امسكت فانيسا عقال لسانها وتناولت حساءها بحذر بالغ متذكرة ما

حدث عند الظهر... ونظرت الى كال فوجدته يحدق فيها.

اتسعت عيناها تعجباً، ترى ما هذا التعبير على وجهه؟ خيل اليها انها ترى معنى محيراً، لكن المعنى اختفى عندما قال:

«الحساء ليس ساخناً كالمرة السابقة؟».

اغتصبت ابتسامة وقالت:

«كلا».

كان يعمل جاهداً كي يلطف الجو. ومن خلال نظراته الى الفتاة الأخرى لم يكن الأمر صعباً. من الواضح ان هناك شيئاً ما بينهما خاصة النظرات الدائمة التي كانت تلقيها هيثر باتجاه كال، والبسمات التي حرصت على ان تلحظها فانيسا دائماً. اما كال فقد لعب دور المضيف بنجاح في غياب السيد ماكلين. وكان يبدو على السيدة الكبيرة اعجابها بكلام كال بحيث طفت ضحكاتها على العشاء كله. وتساءلت فانيسا عن الوقت المناسب الذي يمكنها فيه ان تنسحب الى غرفتها. فهي متأكدة من انهم لا يريدونها، كما انها لا تريد ان تبقى معهم ايضاً. ولكن تبين ان الهرب مستحيل، فما ان انتهوا من تناول الجبنة والبسكويت حتى اقترح كال ان يتوجهوا الى الصالة لتناول القهوة. همهمت السيدة ماكري موافقة، في حين ابتسمت هيثر لكال بنعومة بالغة... اما فانيسا فقد قالت بهدوء:

«اظنكم ستعذرونني لعدم تمكني من البقاء»!

ضاقت عينا كال وهو يسألها:

«ولكنك ستتناولين القهوة معنا؟».

«لا شكراً. العشاء كان ممتازاً... لكنني لا استطيع السهر».

ابتسم بهدوء وقال:

«يجب ان لا نغضب السيدة بانكس. فهي لن تقبل بأن تجد فنجان قهوة غير مشروب على الطاولة، باعتبار انها فخورة جداً بالقهوة التي تصنعها».

شعرت فانيسا برغبة طفولية في ان ترد عليه قائلة: يمكنك ان تشرب الفنجانين بنفسك. لكنها لم تفعل بالطبع. واكتفت بالقول:

«هل يمكن ان آخذه الى غرفتي اذن؟».

تدخلت هيثر بصوت ناعم قائلة:

«بالطبع يا كال. فلا شك ان فانيسا متعبة بعد حادث اليوم».

والتفتت الى فانيسا وكأنها تقول: حظك سيء.. على كل حال نحن لا نريدك ايضاً.

استغربت فانيسا، وهم يسيرون في الممر المؤدي الى الصالون، كيف ان كال فظ معها بينما هو ناعم جداً مع هيثر. وقالت لنفسها: كم ان الرجال اغبياء! يكفي ان ترف تلك المرأة جفنيها حتى يسرع كال للركوع بين يديها. على كل هما مناسبان لبعضهما... واعتقدت ان هذه النتيجة ستعزيها قليلاً، ولكن هذا لم يحصل.

وعندما دخلت السيدتان الى الصالون تمهل كال ليفسح الطريق امام فانيسا... لكنها توقفت قليلاً. استدارت نحوه وقالت:

«السيدة ماكري على حق. يدي اتعبتني. ولذلك سأستأذن بالانصراف وآوي الى فراشي. وانا متأسفة على فنجان القهوة».

رأت عضلات فكيه تتقلص وتشتد، فأدركت انه غضب من شيء ما. اعطاها هذا الاحساس بعض الارتياح ومكنها من ان تضيف بسرعة:

«واعتقد ان وجودي غير مرغوب فيه في هذه السهرة... كما ان التلفاز سيعرض فيلماً جيداً».

ودون ان تنتظر جوابه دخلت الى الصالون وتوجهت حيث جلست السيدتان وقالت:

«ارجو المعذرة... تصبحون بخير».

ولم تنظر الى كال وهي تغادر الغرفة، لكنها شعرت بأنه على وشك ان يلحق بها ويوقفها مثلما فعل فوق التلة بعد الظهر.

اغلقت باب غرفتها والقت بجسمها عليه وتنهدت بعمق. انتهى كل شيء. وفكرت بارتياح: اذا ما التقيت هيثر العزيزة مرة اخرى فلن ازعج نفسي بمحادثتها. توجهت نحو النافذة واسدلت الستائر المخملية. ثم ادارت جهاز التلفاز وغرقت في الكرسي الوثير الذي يواجهه. شعرت بالندم لانها لم تنتظر قليلاً لتحضر فنجان القهوة معها. ولكنها لن تنزل لاحضاره بل تفضل ان تشرب الماء بدلاً من القهوة.

ملأت موسيقى البرنامج الكوميدي الذي يعرضه التلفاز جو الغرفة في حين انهمكت فانيسا في فك سحاب فستانها... عندما ارتدت الفستان لم تجد صعوبة في رفع السحاب. لكنها اضطرت الآن لاستعمال يديها

الاثنتين لأن السحاب تعرقل عند الرقبة تماماً. فكرت للوهلة الأولى بأن تتسلل دون ان يراها احد الى المطبخ وتسأل السيدة بانكس ان تساعدها. اسقطت هذه الفكرة وهي تبتسم لسخافتها. الأفضل ان تبحث في الغرفة عن شيء يساعدها مثل مبرد اظافر او مقص. واخذت تقلب كل الاحتمالات المعقولة وغير المعقولة. اسهل احتمال كان ان تنزل وتسأل السيدة ماكري ان تساعدها... اسقطته عندما فكرت كيف ستكون ردة فعل هيثر. فجأة سمعت قرعاً على الباب، ودون ان تلتفت قالت:

«أدخلي».

لا بد ان كال قد طلب من السيدة بانكس ان تحضر لها القهوة. لكن الصدمة كانت كبيرة عندما التفتت من فوق كتفها لتجد كال نفسه حاملاً لها فنجان القهوة ومعه بعض الشوكولاته:

«آه، هذا انت؟».

وضع الصينية التي كان يحملها على الطاولة المجاورة للباب.

«من توقعت؟ لوري؟» سألها بجفاء وقد اسود وجهه، وتابع: «لماذا تحاولين ازاحة هذا الكرسي؟».

«حتى استطيع مشاهدة التلفاز براحة». ثم تذكرت ضرورة ان تشكره فقالت: «اشكرك لانك احضرت لي القهوة»...

اجابها مضيفاً:

«... والشوكولاته بالنعناع ايضاً».

ثم اقترب من الكرسي وحمله على الرغم من ضخامته وثقله وقال لها:

«قولي لي اين تريدينه؟».

«آه هنا.. الى اليمين قليلاً.. ممتاز، شكراً لك.. لقد، لقد اعتقدتك السيدة بانكس!».

رفع احد حاجبيه وقال.

«صحيح؟ انا متأسف لأني خيبت ظنك».

بلعت ريقها وهي تقول «كنت اريد» عليها ان تتحرك الآن والا فات الأوان.

«لم استطع ان افك سحاب فستاني واردت ان..».

ترى لماذا لم يقاطعها كعادته؟ يا له من رجل خبيث. اما هو فقد ظل

واقفاً يراقبها بهدوء بانتظار انتهاء كلامها. وتابعت تقول:

«كنت سأسأل السيدة بانكس ان..».

من الأكيد انه سيرفض مساعدتها. واخيراً ابتلعت كبرياءها وقالت:

«ارجوك، هل لك ان تساعدني في حل عقدة سحاب فستاني بالقرب من العنق؟».

«بالطبع. لم اعرض المساعدة اولاً لئلا يساء فهمي».

ادارت ظهرها وهو في طريقه اليها. خيم جو من الصمت على الاثنين، فأحست فانيسا بانه يتمتع بالاحراج الذي اصابها من جراء طلبها. كانت يداه باردتين وسريعتين. حل عقدة السحاب من الأعلى، تردد قليلاً، ثم كمل سحبه الى الأسفل. احست بنفسه يلفح رقبتها وهو يقول:

«هل يكفي هذا؟».

«لست..»، امتدت يداها الى الخلف لتجس السحاب، فالتقتا كفيه للحظات قليلة كانت كافية لبث تيار كهربائي في جسدها.

«الى الأسفل قليلاً، ارجوك».

يا الله، ماذا حل بها؟ فقد كانت ترتجف مثل ورقة شجر في مهب الريح. ابتهلت في داخلها:

«ارجوك ارحل الآن».

واحست بالسحاب ينحل اكثر.

«هذا افضل. شكراً لك».

واستدارت بسرعة خوفاً من ان يحاول ان يحله اكثر مع انها تعرف انه لن يفعل، فاصطدمت به. اسرع كال بوضع يديه حول كتفيها لمنعها من السقوط، وللحظات وقفا صامتين واحساس بالتوتر يهيمن عليهما لادراكهما بأن شيئاً غريباً يحدث في الغرفة.

«حسناً، يجب ان اذهب الآن لأنضم الى الضيوف».

حطم كلامه الصمت بينهما فاستدارت فانيسا بعيداً في حين سار كال نحو الباب مغادراً الغرفة. فتح الباب، تردد قليلاً قبل ان يقول:

«تصبحين على خير»..

انتزعت وسادة السرير وصفقت الباب بعنف. خيل اليها سماع ضحكته في الممر. فوقفت في مكانها وصدرها يغلي بالغضب. لكنها لم تكن

غاضبة تماماً، فالشعور الذي ملأ صدرها كان جديداً عليها... انه مخيف ومثير في آن واحد.

اعتقدت فانيسا انها ستأوي الى فراشها باكراً. وبعد ان خلعت ملابسها جلست في المقعد الوثير تحتسي قهوتها مع الواح الشوكولاته بالنعناع. احست بالتعب فقررت ان تنام فور انتهاء الفيلم التلفزيوني. ومع مضي الوقت وجدت نفسها قلقة وغير قادرة على النوم. كانت تسمع صدى اصوات تنبعث من الطابق السفلي بدون ان تعرف ما هي. ترى ماذا يفعلون هناك؟ يتحدثون؟ يلعبون الورق؟ وعندما انتهى الفيلم الذي كان مملاً وسخيفاً مفسحاً المجال للاعلانات، قامت فانيسا نحو النافذة وازاحت الستارة. امام الباب وقفت سيارة «رولز رويس» فخمة. من الذي يسوقها؟ الأم ام الابنة؟ على كل حال هما ما زالتا في البيت.

وفي لحظة غضب ارخت فانيسا الستائر بعنف واطفأت التلفاز وتوجهت الى السرير. استلقت في فراشها من دون ان تستطيع النوم. وازداد الألم تدريجياً في يدها بحيث لم تعد قادرة على الاحتمال فتوجهت الى الحمام وتناولت حبتين من الدواء الذي اعطاها اياه الطبيب. وبينما هي عائدة الى سريرها سمعت همهمات تصدر من أسفل النافذة فتوجهت اليها فوراً. رفعت الستارة بحذر شديد ونظرت الى الباحة التي اضيئت فجأة فانعكس النور على لون الرولز رويس الذهبي، وهناك وقف ثلاثة اشخاص: السيدة ماكري وهيثر وكال. كانوا يتحدثون، واحدهم يضحك عالياً. لمست هيثر ذراع كال الذي انحنى نحوها كأنه يريد سماع كلمات خاصة منها... ومع ان فانيسا ارادت ان تبتعد عن النافذة الا انها لم تستطع.

وأخيراً لوحت السيدة ماكري بيدها، ففتح كال باب السيارة الخلفي لها. دخلت هيثر خلفها بعد ان تمهلت لتتبادل عناقاً قصيراً مع كال. اغلق باب السيارة، فانزلت هيثر الشباك وقالت شيئاً ما لكال الذي رد بضحكة طويلة. اذن هناك سائق خاص لقيادة السيارة؟ ولماذا لا؟ راقبت فانيسا السيارة وهي تتحرك باتجاه الباب الخارجي. وكانت على وشك ان ترخي الستارة، لكنها ترددت قليلاً لتتأمل كال الذي انعكس ظله على الباحة الأمامية. كيف اعتقدت انه ليس قوياً؟ انه يبدو الآن كحيوان شديد القوة مليء بجاذبية لا يمكن انكارها ابداً. وفجأة استدار والتفت الى اعلى...

مباشرة باتجاه فانيسا. نظر اليها لثوان قبل ان يبتسم ويختفي داخل البيت. قفز قلب فانيسا بشدة وهي تبتعد عن النافذة. لقد شاهدها الآن، فماذا يفكر في ذلك؟

اعتقدت انها لن تنام بسرعة، لكن حبتي الدواء اعطتا مفعولهما الفوري. وغرقت في كوابيس مزعجة دارت كلها حول وجهين، احدهما لرجل عجوز لم تره بعد والآخر لشاب قوي الملامح اصبح مألوفاً لديها تماماً.

استيقظت باكراً، لكنها ظلت مستلقية تسترجع احداث اليوم الماضي. وفجأة اعترتها رعشة باردة فانتصبت جالسة. لقد تذكرت انها ستلتقي جدها بعد ساعتين تقريباً. لن تستطيع ان تتراجع الآن فقد فات الأوان. وداهمها شعور آخر بالانزعاج عندما فكرت في كال. فهذا الرجل سيراقبها بدقة، اذ انه يشك فيها بدون ان يعرف لماذا. لعله حدس وجود شيء غير طبيعي في تصرفاتها، ولذلك عليها ان تتصرف باعصاب باردة وهدوء تام. فهل تستطيع ان تنجح في هذه المهمة؟ حاولت ان ترخي اعصابها وهي تغسل وجهها وترتدي ملابسها. انها تحتاج لكل ما تختزن من ارادة، خاصة خلال اليومين المقبلين، وستراقب كال غرين بحرص بالغ في هذه الفترة. عليها ان تتناول الافطار بسرعة وتبدأ عملها في المكتبة لأن الكتب ستساعدها على التفكير المستمر بكال وجدها. كانت تتوقع ان تكره المكتبة خاصة انها قبلت الوظيفة كوسيلة لتنفيذ مآربها. لكن هذا لم يحدث. لقد وجدت متعة فائقة في التعامل مع الكتب الانيقة وقراءة عناوينها والرجوع الى الماضي كما كان، اذ ليس افضل من كتاب يعيد احياء الماضي بلحظات. كما كانت هناك مئات الصحف القديمة التي دلها عليها لوري في احدى الزوايا، وبعضها يعود الى اوائل القرن الثامن عشر. وقد تشوقت فانيسا للعمل فيها وترتيبها حسب التسلسل الزمني. ولا شك ان هذه المجموعات قيمة جداً، لكن هل يعرف جدها قيمتها الحقيقية؟ هذا ما ستعرفه قريباً.

وبينما هي تنزل السلم متمهلة باتجاه الطابق السفلي سمعت باباً يفتح، فتوقفت. هل هذا باب غرفته؟ لقد سمعت صوت محرك سيارة وهي تستحم، لكنها لم تشاهد شيئاً امام المنزل عندما نظرت من النافذة. وفجأة

اعتراها شعور بالضياع والارتباك.

«صباح الخير».

داهمها الصوت بحدة وهي تنزل الدرجات الأخيرة وتلتقي مواجهة مع الرجل الآتي من الصالون. ارتاحت قليلاً عندما رأت انه كال. كان يرتدي صديرية صوفية بيضاء فوق قميص ابيض ايضاً. بدا لها جذاباً اكثر من ذي قبل، وعرفت على الفور لماذا اعجبت هيثر بهذا المخلوق القوي. ابتسم لها، فأعادها فوراً الى حالة الترقب والاستنفار.

«اعتقد ان السيد ماكلين لن يكون معنا على الفطور، لكنك سترينه لاحقاً».

«ألم يحضر بعد؟».

«أجل، لقد حضر».

بدت عيناه الخضراوان بلون رمادي غامق من تأثير الضوء القوي. لكن فانيسا كانت مهتمة اكثر بالنظرة المتمعنة التي اطلقها نحوها. وتذكرت انه رآها مساء امس وهي واقفة على النافذة. نزلت الدرجة الأخيرة وسارت باتجاه غرفة الطعام. ولأن ساقيه كانتا طويلتين فقد تمهل في سيره كي يبقى في موازاتها.

«كيف حال يدك اليوم؟ هل تشعرين بتحسن؟».

«نعم شكراً لك».

«هل طلب منك الدكتور اينيس مراجعته مرة اخرى؟».

خففت سيرها ونظرت اليه. كانا قد وصلا تقريباً الى باب غرفة الطعام. قالت:

«طلب مني ان اغير الضمادة يومياً، وان ابلغه على الفور بأي طارىء. ولا اتوقع حدوث التهابات لأن جراحي تلتئم بسرعة».

«ممتاز. وهل تستطيعين لف الضمادة؟ الا تريدين اية مساعدة؟».

«لا، شكراً».

وابتعدت عنه. اذ بدا لها للحظة وكأنه سيمسك ذراعها، وهي لا تريد ان يمسها ابداً.

لم تكن السيدة بانكس في احسن حالاتها في تحضير الفطور. لعل ذلك بسبب عودة صاحب البيت، فربما هي مهتمة باعداد فطور خاص له ليتناوله

في غرفته. وتساءلت فانيسا عن المكان الذي كان فيه جدها. من المحتمل انه كان مسافراً. انها لا تعرف طبيعة الأعمال التي يقوم بها، خاصة ان اباها تكتم جداً في هذه الناحية.

«هل انت قادرة على تقسيم قطعة الجبنة؟».

فاجأها سؤاله:

«ماذا؟ آه، اجل استطيع تدبر امري».

وقالت في سرّها «وكأنني سأسمح لك بأن تقوم بالمهمة عني». وتساءلت عما سيحدث في عطلة نهاية الاسبوع، هل سيطلب منها العمل خلالها؟ من الممكن ان تقبل العمل صباح السبت، اما بعد الظهر ويوم الأحد فلا. قررت الخروج في سيارتها الى نزهة غير بعيدة، بعد ذلك ستقرأ، ثم تكتب رسائل الى الاصدقاء او تكتفي بمشاهدة التلفزيون في غرفتها... على الأقل ستكون هناك في مأمن من ايحاءات كال ونظراته الباردة المتحدية.

رفعت عينيها فجأة فوجدته يحدق فيها، وتشابكت نظراتهما للحظة في حوار صامت غريب. حبست فانيسا انفاسها. ما هو المعنى الذي تحمله نظراته؟ هناك شيء لا تستطيع فهمه. لم يكن العداء الذي عهدته منه، وحتى لو كان كذلك فانه عداء خفي... والى جانبه تعبير لم تتعوده من قبل، اذ لم يكن هناك ذلك الاعجاب الواضح الذي يظهر في نظرات معظم الرجال. اعادت نظرها الى صحن الجبنة وتشاغلت بالأكل. ستريه انه لا يستطيع ازعاجها.

قالت له:

«سأباشر العمل في المكتبة بعد الفطور».

ونظرت اليه مباشرة بعد ان استعادت رباطة جأشها.

«ممتاز. واعتقد ان لوري سيكون هناك للمساعدة. على فكرة كيف تسير امور العمل؟».

«على ما يرام. وهو يساعدني كثيراً. لقد اكتشفت ان ترتيب الكتب امر مثير للاهتمام اكثر مما كنت اتصور».

وقطعت جملتها. لماذا تزعج نفسها باخباره عن العمل؟

ابتسم وكأنه يشجعها على المضي في حديثها:

«اذن انت مستمتعة في عملك؟».

انه قادر على استفزازها بمجرد كلمة يقولها او تعبير يظهره. . . والأسوأ من ذلك انه يعي قدرته تلك. وقد ادركت فانيسا انه تعمد الاستفزاز الجديد.

«ولماذا لا؟ فالكتب مثيرة للاهتمام». وتابعت ببرود «ام انك لا تجدها مهمة فعلاً؟».

هز رأسه موافقاً:

«انا مهتم جداً، خاصة بالكتب التي تتحدث عن الدول الأجنبية. . والتي ستجدين عدداً كبيراً منها في المكتبة».

اجابته وقد نسيت استفزازه السابق:

«لقد فرزت عدداً منها من بين الكتب التي احصيتها حتى الآن».

وفكرت في نفسها انه يبدو جذاباً جداً في بعض الأحيان. وتابعت:

«احد هذه الكتب قديم جداً وبحالة سيئة للغاية».

«ان بعض الكتب قديمة ومغطاة بالغبار. لذلك اقترح عليك ان تبقي الضمادة الى ما بعد انتهاء العمل ثم تغيّريها مساء».

نظرت الى يدها وقد اعجبها الاقتراح. قالت:

«سأفعل ذلك».

«ولا تحاولي ان تحملي الكتب بيدك المصابة، ليس خلال اليومين المقبلين في اي حال».

«لن افعل. اريد ان اسأل: هل تعرف ما هي ساعات عملي غداً باعتبار انه السبت؟».

«لا. على كل ستتفاهمين مع السيد ماكلين حول ذلك، فهذا ليس من اختصاصي. لكني لا اعتقد انه سيصر اذا ما اردت الراحة غداً. هل هناك مكان محدد تريدين زيارته؟».

نظرت اليه:

«تقصد زيارة احد ما؟ لا، فأنا لا اعرف احداً هنا. لربما خرجت في نزهة لاستكشاف الريف الاسكتلندي. . . وهذا كل شيء».

رفع احد حاجبيه قليلاً وهو يقول:

«وحدك؟ حتى بعد الذي تعرضت له مؤخراً؟».

«لا اعتقد انني سألتقي الشابين مجدداً، على الأقل ليس في الجوار».

واعترف قائلاً:

«معك حق. فلم يحصل ان حدثت مثل هذه الأمور في المنطقة. لكن من الممكن ان تضيعي في الريف الواسع!».

ابتسمت وهي تقول:

«هل لديكم خريطة؟ صدق او لا تصدق، لقد جئت من لندن الى هنا مستعينة بالخريطة فقط. والواقع انني خبيرة في قراءة الخرائط واشارات السير».

وابقت الابتسامة على شفتيها لكي تشعره بأنها لا مبالية.

ضحك كال عالياً:

«انا متأكد من خبرتك».

ثم رفع وعاء القهوة وسألها:

«مزيد من القهوة؟».

«نعم».

وراقبته وهو يسكب القهوة ثم يضيف بعض الحليب. وفجأة انفتح الباب ودخل رجل في الستينات من العمر، طويل القامة واشيب الشعر.

ولم تكن فانيسا بحاجة لمن يخبرها بان هذا الرجل هو جدها.

٥- المواجهة الأولى

خشيت فانيسا ان تظهر على وجهها آثار الصدمة التي اصابتها، في حين وقف الرجل عند الباب لثوان معدودة. احست بانها ترى والدها مرة أخرى لكنه أكبر عدة سنوات. كل شيء بدا لها مألوفاً: الطريقة التي يقف ويمشي فيها، الوجه النحيف ذو التقاطيع الحادة، والعينان الزرقاوان النافذتان تحت حاجبين كثيفين. وأخيراً تكلم:

«ها انتما هنا معاً»...

وحتى صوته بدا مألوفاً بحيث شعرت برغبة في القفز اليه واخباره عن شخصيتها... لكنها تمالكت اعصابها، فقد كان كال يراقبها، ثم استدار الى الرجل القادم ووقف له.

سار اندرو ماكلين باتجاههما:

«صباح الخير يا كال».

ثم حول نظرته الحادة الى فانيسا وقال:

«صباح الخير يا آنسة كولينز».

اضطرت فانيسا الى مصافحته عندما استدار نحو الطاولة، فاعتذرت له لأنها استعملت يدها اليسرى... وكانت ساقاها ترتجفان.

«هل تريد فنجاناً من القهوة يا سيد ماكلين؟».

سأله كال وهو يسحب له الكرسي حول المائدة.

«طبعاً. لقد شربت فنجاناً في غرفتي ولكن لا مانع عندي من فنجان آخر».

استدار نحو كال الذي انشغل بسكب فنجان القهوة، ثم التفت نحو

فانيسا مرة اخرى.

«اعتذر لأنني لم اكن هنا لاستقبالك. واتمنى ان يكون كال قد قام بالواجب. هل جال بك في البيت؟».

«اجل، شكراً لك. كنا نتحدث عن اهمية الكتب الموجودة في المكتبة».

«اذن انت تجدينها ملفتة للنظر؟ هذا جيد لأنني اؤمن دائماً بانه من الافضل للانسان ان يعمل في المجال الذي يحبه. هل واجهتك اية مشاكل؟».

«كلا يا سيد ماكلين».

كان عليها ان تنطق اسمه- أو بالأحرى اسمها- في وقت ما. وكلما بكرت كلما كان الأفضل. وعندما فعلت لم تجد الأمر صعباً كما كانت تتخوف.

«لكن حادثاً مؤسفاً وقع لبيتك! انا متأسف لذلك».

كان الاهتمام الحقيقي واضحاً في صوته.

«كانت غلطتي في الأساس. وانا متأكدة من انها ستتحسن خلال ايام قليلة... والحادث لن يؤثر على استمرار العمل».

اعتقدت في البدء انها لن تستطيع التحدث اليه بشكل طبيعي، لكنها استطاعت. وكانت ستجد الأمور اكثر سهولة لو ان كال غير موجود، هذا الرجل غير المتوقع الذي خلق لديها شعوراً بالذنب وعدم الارتياح والذي يبدو انه يستمتع بذلك.

وهنا تدخل كال:

«لوري يساعد الآنسة كولينز الآن».

«حقاً؟».

اعطاها جدها ابتسامة خفيفة وقال:

«يظهر انني أسأت فهمه، لقد رفض في البدء باعتبار انه مشغول جداً».

«لعله اكتشف انه يستطيع تدبر امره في اي حال».

ولم يكن في صوت كال اي معنى، لكن فانيسا فهمت مقصده وتمنت لو انه يغادر الغرفة. والآن، بعد ان زالت صدمة رؤية جدها لأول مرة، وجدت نفسها تراقبه في محاولة لتبيّن ملامحه بعيداً عن اية مشاعر شخصية، كما لو انه غريب تماماً. فهذا ما يجب ان تفعله اذا ارادت ان لا تنكشف قبل

ان يحين الموعد الذي لم تحدده بعد.

اكتفت فانيسا باحتساء قهوتها بينما كان اندرو ماكلين يسأل كال عن احوال البيت وعن الضيفتين اللتين زارتاه امس.

رد كال:

«لقد انزعجتا قليلا لأنك لم تكن هنا، لكني حاولت جهدي ان اهتم بهما».

التفت الى فانيسا مبتسماً، فردت عليه بنظرة باردة.

«سأتصل بهما هاتفياً في وقت لاحق. لم يكن بالامكان الحضور امس، فالرحلات من باريس محجوزة كلها».

ابتلع آخر رشفة من قهوته ووقف قائلا:

«يجب ان اذهب لاداء بعض الأشغال. اراك فيما بعد يا آنسة كولينز».

وغادر الغرفة مثل جندي طويل يسير ثابت الخطى. خيّم الصمت بعده للحظات، ثم نهضت فانيسا:

«يجب ان ابدأ العمل».

وفجأة خطر على بالها خاطر. التفتت الى كال وسألته:

«ماذا عن الغداء؟».

نهض ببطء وهو يقول:

«الغداء؟ ماذا تقصدين؟».

كانت تود ان تقول له: انت تعرف تماماً ما اقصد، لكنك تجد متعة في لخبطة الأمور بالنسبة لي. لكنها قالت:

«اقصد اين سأتناول الغداء، في غرفتي؟».

رفع حاجبيه ببطء:

«هنا مثلما فعلت أمس».

تنفست فانيسا بعمق وهدوء:

«لقد عاد السيد ماكلين الآن. كان لطفاً منك ان تدعوني الى غرفة الطعام اول مرة، لكني مجرد موظفة في هذا البيت واتوقع ان...».

«موظفة؟ يا لها من طريقة رائعة للتعبير عن الذات! صحيح انك موظفة، لكن هل تعتقدين ان ذلك يعني دعوتك الى المطبخ لتناول الطعام في احدى زواياه؟».

احست بان دمها يغلي وهي تكبح جماح غضبها. يا له من رجل مكابر عنيد.

«انا متأكدة انك تعرف ما قصدت. انت ضيف هنا، ولا اعتقد انك تقدر موقفي».

«الا اقدره فعلا؟».

وضاقت حدقتاه بغضب وهو يضيف:

«ستفاجأين اذا عرفت ان السيد ماكلين سيندهش، بل سيغضب، اذا ما اقترحت تناول طعامك في اي مكان آخر».

ولم يعد في يدها حيلة. كيف يمكن ان تخبر رجلا كهذا بانها لا تريد ان تأكل معه لأنه يخيفها؟ انها لا تستطيع، وعليها قبول الواقع. وبدون ان تتفوه بكلمة استدارت خارجة من الغرفة. وقبل ان تصل الى الباب كان هو هناك اولا، وقال لها:

«اسمحي لي ان افتح لك الباب».

«شكراً لك».

وخرجت بسرعة بدون ان تنتظر لترى ما اذا كان يلحقها، قاصدة المكتبة لتبدأ العمل. فهناك، وهناك فقط، ستجد نفسها قادرة على التفكير في الرجل الذي التقته لأول مرة اليوم، الرجل الذي هو جدها ولكنه لا يعرف ذلك.

اغلقت الباب وراءها ورمت الحقيبة على احد المقاعد. ارتدت الرداء الواقي وتساءلت عما اذا كان لوري سيأتي لمساعدتها، ومتى؟ احست ان الحادث الذي جرى بينهما اصبح من الماضي، مع انه وقع بالأمس فقط.

وكم تتمنى الآن لو انه لم يحدث ابداً! لقد عمل بنشاط وقدم مساعدة قيمة، لكنها بغنى عن اية اشكالات جديدة قد تزيد في اضطرابها الداخلي. ولذلك قررت ان تقمع على الفور اية محاولة جديدة منه، اذ تكفيها المشاكل مع كال وظهور جدها المفاجيء...

كانت منهمكة في العمل عندما قرع لوري الباب ودخل، حيته بابتسامة صداقة وقالت:

«صباح الخير يا لوري».

«صباح الخير».

ركز نظره على يدها المصابة وقال:

«كيف حالك اليوم؟».

«افضل قليلا، شكراً لك».

لكنها عادت وتساءلت:

«كيف عرفت؟».

«اذا قضيت وقتاً طويلا هنا فستكتشفين ان الاخبار تنتقل بسرعة في البيت. على كل، الطاووس يفزع كل الناس. المهم ان تكوني حذرة فيما يتعلق بيدك، وانا سأقوم بكل ما يلزم».

«شكراً لك. يجب ان نعمل اولا على الكتب التي انزلتها، اذ انني كنت بطيئة بالأمس».

من الافضل لها ان تركز الحديث على العمل والكتب. ووجدت فانيسا الفرصة لتكتشف الجانب الآخر من لوري الغارق في غبار العمل. انه يحب الكتب فعلا، كما انه يجهد للتصرف بشكل طبيعي وكأنه احس مزاجها المتعكر اليوم.

مضى قبل الظهر بسرعة، بحيث فوجئت فانيسا عندما فتح الباب ودخل جدها الى المكتبة. وعندما شاهده لوري توجه للسلام عليه.

«صباح الخير يا سيد ماكلين. ان شاء الله كانت رحلتك موفقة؟».

«اجل، وشكراً يا لوري. يظهر انك مشغول ايضاً. هل تعرف كم الوقت الآن؟».

واندهشت فانيسا عندما عرفت ان الساعة تجاوزت الواحدة، وعليها ان تغتسل بعد. نهضت عن الأرض وهي تقول:

«انا آسفة، لقد استغرقنا في العمل».

«اعرف ذلك، لكن يجب ان تأكلي يا ابنتي. فهيّا بنا. الكتب ستظل هنا عندما تعودين!».

وانتظر على الباب حتى خرجا.

حمل لوري سترته ووقف ينتظر خروج فانيسا لكن كُمّ الرداء الواقي علق بالضمادة، بحيث اضطر لوري الى مساعدتها.

«شكراً لك».

وادركت فانيسا ان شيئاً مما دار لم يفت جدها. قطعت المسافة الى غرفتها

ركضاً ثم غسلت وجهها وفكت الضمادة عن يدها وعادت مسرعة الى غرفة الطعام لتجد ان الرجلين على وشك الانتهاء من الحساء.

«انا آسفة».

لكن اندرو ماكلين قاطعها باشارة من يده وقال:

«لا ضرورة للاعتذار. من الجميل ان نجد انساناً يحب عمله الى الحد الذي ينسى معه الوقت». ثم نظر الى كال وقال «ما رأيك أنت؟».

«طبعاً.. طبعاً».

كانت عيناه تراقبان فانيسا وكأنهما تسخران منها. ثم اضاف فجأة:

«هل عملت من قبل في مثل هذا المجال؟».

«كلا».

لقد رددت القصة المختلقة في ذاكرتها لأكثر من اسبوع، والآن سترى ان كانت ستبدو معقولة في نظر الآخرين. يجب ان لا تظهر شعورها بالقلق:

«عملت سكرتيرة لمدة عامين، ثم قررت التغيير بسبب بعض المشاكل في العمل».

حتى الآن القصة حقيقية تماماً، ولكنها لن تخبرهما عن طبيعة المشاكل التي واجهتها:

«اخبرني صديق يعمل في مكتب محاماة يدعى مورتون وسميث وكيمبل».

وترددت امام هذه الأسماء كي تبدو غريبة عنها، ثم تابعت:

«عن ان سيداً اسكتلندياً هو انت» واشارت مبتسمة الى السيد ماكلين، «يريد ان يعيد ترتيب مكتبته. وقد تقدمت الى هذه الوظيفة لأنني احب الكتب».

وضع جدها ملعقة الحساء من يده وتناول قطعة خبز وقال:

«اذن انت تعرفين شخصاً يعمل في مكتب المحاماة؟».

«اجل. انها السكرتيرة. ليست صداقة حميمة بقدر ما هي معرفة عادية».

ولم تكن فانيسا كاذبة، اذ ان بات جونز تعمل سكرتيرة في المكتب، وهي لا يمكن ان تفضح حقيقتها... مع ان المعلومات الحقيقية جاءت من

السيد مورتون نفسه.

«وهل اخبرتك عن اشياء اخرى؟».

اطلق هذا السؤال تجاهها في حين كان كال يراقبها. صحيح انه لم يكن ينظر اليها مباشرة، الا ان تركيزه على سماعها كان واضحاً للغاية.

وقالت اول كذبة:

«لا. لكني لم افهم، هل تقصد اشياء اخرى عن العمل؟».

حك اندرو ماكلين خده وقال:

«لا. لا شيء. والآن اخبريني يا فانيسا، لا مانع عندك بان اناديك باسمك المجرد؟ كيف ترين الكتب؟ اقصد هل هناك تلف؟».

استمعت اليه بتمعن. اسئلته كانت معقولة وموزونة ومركزة حول العمل الذي تقوم به... لكنها احست بجو خفيّ من التوتر يسيطر على الغرفة، وهي تعرف مصدره. كان كال يفكر بعمق. اية اسئلة او اجوبة سيطرحها هذا الرجل؟ مهما كانت طبيعتها فانه لن يلقيها الآن. بل سينتظر الفرصة المناسبة للايقاع بفانيسا كما فعل في اليوم السابق. راقبته بحذر. يجب ان تكون مستعدة له في المرة المقبلة. لكن متى سيكون ذلك؟

أخبرها جدها في وقت لاحق من اليوم نفسه انها حرة يوم السبت. كانت الساعة الثالثة تقريباً عندما دخل عليها المكتبة وهي وحدها، اذ ان لوري لم يكن قد عاد من الغداء بعد. ولانشغالها في العمل لم تنتبه الى دخوله، لكن سعلة خفيفة منه جعلتها تلتفت لترى وجهه النحيف. وكما في كل مرة تراه، احست برعشة من الاشمئزاز ممزوجة بمشاعر الخوف. ماذا لو اكتشف الحقيقة قبل ان تكون مستعدة؟

قالت وهي تضع القلم من يدها:

«أنا آسفة. هل تريدني؟ لم اكن ادري انك».

«لقد دخلت بهدوء حتى لا ازعجك».

وابتسم لها، انها ابتسامة ابيها بالذات. ثم تابع يقول:

«ثم وقفت اتأمل باعجاب النشاط الذي تمارسين به عملك».

نظرت فانيسا الى لائحة الكتب الموضوعة على الطاولة. لم يكن عندها ما تقوله، اذ ان عقلها تحول فجأة الى لوح ابيض فارغ. وفكرت انها ستفشل حكماً اذا ظلت على هذه الحال خلال الايام القليلة المقبلة.

لم ينتبه اندرو ماكلين الى صمت فانيسا بل تابع قائلا:

«انت حرة غداً، وبالطبع الاحد ايضاً. اعرف ان وسائل الترفيه غير متوفرة في المنطقة، لكن ارجوك ان لا تترددي في استعارة اي كتاب تودين الاطلاع عليه».

وعندها زال الجمود عن فانيسا وتذكرت.

«اجل، هناك مجموعة من الجرائد القديمة موضوعة في صندوق كرتوني دلني عليها لوري... واتمنى ان اطلع على البعض منها».

تغير وجه ماكلين القوي بسرعة. وبدت على ملامحه تعابير الانشراح والسرور الطفولي.

«يا الله... الجرائد. انها بحاجة للترتيب ايضاً. هل تعرفين ان لدي نسخاً عن صحيفة تدعى اوكسفورد غازيت يعود تاريخها الى العام ١٦٦٥. الحقيقة انني نسيت كل شيء عنها».

وهز رأسه متابعاً:

«اتمنى ان تقومي بترتيب هذه المجموعات ايضاً. لا شك ان سنوات عديدة مضت منذ...».

واطرق فجأة، وبدت على وجهه ملامح الحزن. لم تشأ فانيسا ان تخرق جو الصمت لأنها شعرت بوجود هذا الحزن المفاجيء... فحبست انفاسها وانتظرت، فهي تعرف لماذا!

«مضى زمن طويل.. طويل!».

مرت لحظات الحزن وعادت الامور الى طبيعتها.

«بالطبع. افعلي ما يحلو لك. واذا اردت ان تحملي بعضها الى غرفتك، فكال...».

والتفت نحو الباب حيث كان كال واقفاً.

«لقد كنت أقول لفانيسا انها تستطيع استعارة اية صحف. فهل لك ان تحمل الى غرفتها كل الصحف التي تريد؟».

«بالطبع».

ونقل كال نظره من فانيسا الى جدها واضاف:

«أنا آسف للدخول عليكما هكذا، لكن السيد ماكري على الهاتف، وقد حولت الخط الى مكتبك».

«شكراً».

وخرج اندرو ماكلين من المكتبة تاركاً فانيسا وكال معاً. استدارت بسرعة الى عملها لأنها لم ترد له ان يرى وجهها خوفاً من ان يلحظ المشاعر التي اختلجت فيها قبل قليل... كما انها تحتاج الى وقت للتفكير.

قاطعها الصوت العميق الناعم:

«هل تريدين الصحف الى غرفتك الآن؟».

«لا. شكراً لك».

لم تلتفت اليه. لكنها احست بحركاته وهو يتوجه نحوها، ثم ادركت انه بات خلفها تماماً.

«هل تريد شيئاً مني؟».

«كلا، أتأمل ما تقومين به فقط».

كان الصوت ينبعث من وراء كتفيها. واحست فانيسا بانها تخطى بجمودها هذا، لذلك طوت اللائحة بسرعة واستدارت لمواجهته.

قالت:

«انني اسجّل الكتب يا سيد غرين».

سحب كرسياً مجاوراً وجلس قبالتها وفي عينيه نظرة سخرية واضحة:

«السيد غرين؟ الا تفضلين اسم كال؟».

«ليس بالضرورة. فانا لا اعرفك تماماً».

اجابته بهدوء، لكنها تعجبت مرة اخرى كيف يشعرها هذا الرجل بالضعف عندما يكون الى جانبها... تماماً كما هو حاصل الآن.

قال وهو يحرك يديه في جيبتي سرواله:

«لكنك تنادين لوري باسمه الأول فقط!».

«هذا شأني وحدي».

ونظرت مباشرة الى كال غرين وهي تبتسم بهدوء وشماتة. انها تدرك تماماً ان ذكر لوري ماكينزي يثير غضبه بشكل سريع وفعال. واضافت تقول:

«ان امورنا تسير على ما يرام».

ارتفع حاجباه الاسودان، لكن وجهه الاسمر ظل دون تعابير واضحة:

«بالطبع، اما امورنا نحن فليست كذلك؟».

«لا اعتقد».

راقبته وهو يفتح علبة سكائر، وعندما قدم لها سيكارة هزت رأسها بالرفض وقالت:

«كلا. شكراً لك». ثم اضافت «الحقيقة انك تحاول دائماً ان تكون قاسياً وفظاً معي».

وتابعت في نفسها تقول «بينما المطلوب مني ان اظل هادئة».

قال:

«اعتقد انك تتحدثين عما جرى بعد ظهر امس!».

اشعل سيكارته من الولاعة التي اضاءت جانباً من وجهه، فبدا الجانب الأخر اكثر سمرة وصرامة.

«اجل».

من الأفضل ان تنقل المعركة الى معسكر الخصم، فلا شك انه يعد شيئاً ما لوقت لاحق. ففي المكتبة، تشعر فانيسا لسبب من الاسباب بانها على ارض آمنة، اكثر امناً من تلك التلة الخضراء المشمسة التي اشعرتها بانها ضعيفة للغاية خاصة بعد احتراق يدها. وانهت كلامها بالقول:

«لقد كنت فظاً بشكل يفوق التصوّر خاصة اني كنت في حالة يرثى لها بسبب يدي. واعتقد انك تعمّدت ذلك».

«اجل، تعمدت ذلك».

تعجبت. كانت تتوقع منه ان ينفي. لا ان يعترف بسهولة، رمته بنظرة حادة، وظلت للحظات عاجزة عن الكلام، ثم أطلقت لسانها:

«اذن، كان موقفك سخيفاً وغبياً».

«انا اوافق».

سحب نفساً عميقاً من السيكارة، والتفت يبحث عن منفضة ولما وجدها وضعها الى جانبه، ثم قال:

«لكن لدي اسبابي الخاصة».

«حقاً، وهل لي ان اعرف ما هي هذه الاسباب؟».

اجابها بهدوء مثير:

«انت تعرفينها تماماً، اليس كذلك؟».

وعاود فانيسا ذلك الشعور البغيض بانها على وشك ان تفقد السيطرة

على نفسها. لكنها هي التي بدأت المعركة وعليها ان تستمر فيها:

«هل تعتقد انني لصة او اي شيء مماثل؟».

«لصة؟» ردد الكلمة وكأنه يفكر فيها. ثم ابتسم ببطء شديد «لا، ليس كذلك، على الاقل لم اعتبرك لصة... حتى الآن».

اشتعلت بالغضب بفعل الطريقة التي اطلق فيها الكلمة الاخيرة. وخرجت التعابير من فمها قوية قاسية:

«وماذا بعد؟».

اجابها قائلا:

«لست ادري، ولكني سوف اعرف!».

ردت عليه بلهجة آمرة:

«لماذا لا تغادر هذه الغرفة فوراً وتتركني لوحدي؟

لست مضطرة لسماع اهاناتك، بل لست مضطرة لسماع اي شيء منك. هل تفهم؟».

وقفت في وجهه وعيناها تقدحان شرراً، وتمنت لو انها رجل لتلقنه درساً لا ينساه. ويبدو ان بعضاً من افكارها وجد صدى لديه بحيث وقف في مواجهتها بدون ان يتخلى عن هدوئه. والآن عليها ان تنظر الى اعلى كي تراه، وهذا شيء تكرهه لأن طوله الاضافي يشعرها بانها اصغر منه واضعف ايضاً:

«اذهب من هنا ارجوك. فهذا مكان عملي، ولا استطيع ان اعمل ما دمت أنت هنا».

«لا ضرورة للغيظ. سوف اذهب.. لكن بعد لحظات. ستكونين مجنونة اذا فكرت بطردي بالقوة».

«لو كنت رجلا لفعلت».

تسارعت نبضات قلبها غضباً واضطرت الى الابتعاد عنه لأنها لم تعد قادرة على مواجهته. لكنه وضع يده على ذراعها واعادها الى مكانها.

«قولي لي...».

لم تدر ماذا كان في صوته، لكنها قاطعته وهي تلوي اصابعه بشدة حتى اطلق سراحها.

«اياك ان تلمسني. انا اكرهك واكره لمساتك».

«فهمت، تحبين لمسات لوري فقط؟».

«كيف تجرؤ...».

قاطعها قائلا:

«دعك من هذا. لا تقولي لي انه لم يعانقك قبل لحظات من دخولي عليكما...».

«صحيح!!».

ادركت على الفور ان خديها تضرجا بالدم، مما جعل كال يضحك.

«لقد كان الأمر واضحاً تماماً. عناق صغير عابر. لنرى كيف تقارنين ذلك العناق بهذا!».

وقبل ان تستطيع الحراك وضع ذراعيه حولها. وفجأة اصبحت الغرفة مظلمة لأنه صار قريباً جداً منها، الى حد انها ضاعت بين ذراعيه. احست بالدفء في صدره. كان لطيفاً وهادئاً بعكس ما توقعت. وطالت لحظة العناق بدون ان تبدي مقاومة. وادركت على الفور انها مرتاحة للأمر، فاعتراها الخوف بحيث استجمعت شجاعتها وابعدته عنها.

«ايها المتوحش».

ورفعت يدها الى وجهها تريد حماية نفسها من هجوم آخر وشيك. غابت عيناه الزرقاوان خلف سحابة سوداء، ولم تستطع فانيسا ان تفهم تعابير وجهه. ظلا للحظات ثقيلة صامتين في مواجهة بعضهما البعض قبل ان يغادر كال الغرفة. واخيراً اصبحت لوحدها. وظلت واقفة في مكانها لعدة ثوان. فالصدمة منعتها عن الحراك، وفي الوقت نفسه جعلت ساقيها ترتجفان بشدة. واخيراً استعادت روعها ورمت نفسها في اقرب مقعد. تشاغلت ببطاقة مرمية على الطاولة لكن فكرها كان في ذلك العناق والشعور الذي ملأها خلاله. لم تكن مستاءة او متضايقة حسب ما توقعت. فالعناق كان جميلا جداً... هذا هو الوصف الوحيد المناسب له.

تمتمت بصوت منخفض «لا شك انني مجنونة!».

الموقف سيكون محرجاً اذا عرف تفكيرها. انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً الآن. كان عليها ان تصفعه حينما كرد فعل طبيعي من امرأة ترفض العناق بالقوة. لم تصفعه، ليس لخوفها من ردة فعله، بل لأنها لم ترد ذلك.

قررت العودة الى العمل فوراً وتناسي ما قد حدث. النتيجة الايجابية

الوحيدة كانت انه توقف عن طرح اسئلته المحرجة. لا شك انه سيعيد طرحها في وقت لاحق، لكن متى؟ اكدت لنفسها هامسة «سأكون جاهزة له المرة المقبلة! سأكون مستعدة تماماً!».

وتساءلت عما اذا كانت تحاول اقناع نفسها بهذا القرار.

انتهى يوم العمل وحان وقت العشاء. تمنت فانيسا لو ان كال وجدها يقرران تناول الطعام خارج البيت.. ولكن المعجزة لم تحصل، وعندما وصلت الى غرفة الطعام وجدت الرجلين يتحدثان وهما بانتظارها. استدار جدها مبتسماً وهي تدخل الغرفة.

«ها انت هنا اخيراً. كنت سأقول لكال...».

قطع كلامه عندما وقعت عيناه على الفستان الرمادي الذي ترتديه.

«تبدين جميلة جداً في هذا الفستان. هل تريدين تناول اي شيء؟».

«شكراً لك. اريد كوباً من عصير التوت من فضلك».

«بالطبع، وانت يا كال؟».

كان كال قد توجه الى الطاولة لتناول الكوب. وراقبته فانيسا وهو يعد كوباً لها وآخر له. ماذا حمل في نظراته اليها عندما دخلت الغرفة؟ ستعرف فوراً، فقد انهى اعداد الكوب واستدار نحوها ليقدمه لها. كان لا مبالياً تماماً، ولم يظهر شيء على ملامحه يمكن ان يعطيها فكرة عما يفكر. فقط ايماءة مؤدبة وهو يقدم لها الكوب:

«تفضلي يا آنسة كولينز».

«شكراً لك».

رد بانحناءة خفيفة من رأسه، وقد كانت خفيفة بحيث لم تشعر فانيسا بها، وانما لاحظت طرف ابتسامة ساخرة لم تستمرّ الا للحظات، قبل ان يستدير لمتابعة الحديث مع الرجل العجوز. بعد ذلك دخلت السيدة بانكس تدفع امامها عربة الأكل فتوجه الجميع الى المائدة. حبذا لو لم يكن موجوداً لكانت مهمتها اسهل بكثير. لكنه سيبقى في البيت لفترة غير محددة، ومن الافضل لها ان تعتاد هذا الواقع.

جلسوا لتناول الطعام وهم يتبادلون الاحاديث العامة المسلية. وفكرت فانيسا كم ستكون الأمور مختلفة لو انها موظفة حقيقية وليست حفيدة صاحب البيت. فهي قد بدأت تتمتع بعملها في الكتب الى جانب اعجابها

بالبيت. لكنها هنا في مهمة وستواصل لعب دورها تنفيذاً لوعد قطعته على نفسها من اجل والدها المتوفي. نظرت مبتسمة لترد على سؤال وجهه كال بدون ان تظهر اي مشاعر تعتمل في نفسها، وكان سؤاله عما قررته بالنسبة الى عطلة نهاية الاسبوع.

طيلة فترة العشاء كانت فانيسا تراقب جدها بدون ان يلاحظ ذلك، تتأمل حركاته وتصرفاته والطريقة التي يتكلم بها. حاولت ان تبعد عن ذهنها الصورة المسبقة التي رسمتها له من خلال احاديث ابيها. لم تكن المسألة سهلة، فقد تصورته رجلا قاسياً متوحشاً، لكن اندرو ماكلين هذا غير الصورة تماماً، فهو لطيف معها- هي الموظفة- الى حد انه يصرّ على ان تتناول طعامها الى مائدته.

وقبيل انتهاء العشاء اختلست فانيسا نظرة الى جدها. سمعوا رنين جرس الهاتف من بعيد، ثم دخلت السيدة بانكس وابلغت السيد ماكلين ان هناك مخابرة هاتفية عاجلة له.

«من يطلبني؟».

«قال ان اسمه ماكوليامز».

وتنحنحت عندما لفظت الاسم، وكأنها تريد ان تقول انه غير حقيقي.

تصلّب وجه اندرو ماكلين عندما سمع الاسم. وخيل لفانيسا انها شاهدت لمحة من الغضب لم تدم الا لحظات. اشتدت عضلات فكيه وهو ينظر الى كال. سأله هذا الأخير بهدوء:

«هل تريدني ان ارد؟».

«كلا».

جاء الجواب مختصراً آمراً وعالياً، ثم خرج من الغرفة. ركزت فانيسا نظرها في صحنها، لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر الى الرجل الجالس قبالتها. كان يراقبها بدون ان يظهر اية مشاعر. وفجأة خفق قلبها بفزع لا تفسير له... فهي لا تستطيع ان تفهم معنى نظراته عندما يكون هكذا. ففي عينيه عمق سحيق من الصعب كشفه بسهولة، وقد ادركت ذلك منذ اليوم الأول للقائه. احست بخفقات قلبها تتسارع، فقالت بدون وعي اول كلمات خطرت لها:

«لماذا تنظر الي هكذا؟».

أجابها بصوت ناعم وساخر:

«هل النظر ممنوع؟».

«أجابته:

«أنت تحدق في، وانا لا احبذ ذلك».

«لسوء الحظ، هناك اشياء كثيرة لا تحبينها فيّ لكنك ستتعلمين التأقلم اذا ما بقيت هنا».

ولاحظت انه شدد كثيراً على كلمة «اذا».

رفعت فانيسا حاجبيها وقالت:

«لا تخف، انا باقية هنا ما دام عملي منتجاً وناجحاً، وانا متأكدة منه. على الاقل السيد ماكلين لا يشكو مني، وهو وحده صاحب العمل».

وقالت في سرّها «ولذلك يجب ان تسكت نهائياً».

ابتسم كال قائلاً:

«انا أكيد ان عملك ممتاز من خلال ما رأيت حتى الآن. لقد تأثرت بنشاطك، لكنني اعتقد انك تعرفين تماماً ما انت بصدده».

في هذه اللحظة عاد جدها الى الغرفة، فتوقف الحديث بينهما عند هذا الحد. نظر السيد ماكلين باتجاه كال وبدا على وشك ان يقول شيئاً لكنه بذل جهداً للسيطرة على نفسه. شعرت فانيسا بانه غاضب، وادركت انها- لولا وجودها- لكانا قد تحدثا عن الاتصال الهاتفي. نظرت الى الساعة ونهضت. لقد انتهوا لتوهم من العشاء، وتريد ان تترك الرجلين وحدهما للتباحث في امورهما، وهي تعرف انهما يرغبان في الانفراد ايضاً.

وعندما استأذنت بالانصراف بعد لحظات، لم يبد احد منهما اي اعتراض. هرعت الى غرفتها بهدوء وخفة، ولما وصلتها تذكرت ما قاله كال عن انها تعرف تماماً ما هي بصدده. الاكيد انه لم يكن يقصد عملها في المكتبة. كم اصبحت تكرهه الآن.

مرت عطلة نهاية الاسبوع على احسن ما يرام. ففي يوم السبت اخذت فانيسا خريطة اعدها لها جدها ووجدت قرية جميلة تقع على الطرف الآخر من الوادي، وهناك امضت فترة بعد الظهر تراقب اطفالا صغاراً يلعبون في حديقة يمتد طرفها حتى الشاطىء. رجعت الى دينستون هاوس وقت العشاء وقد انعشتها مناظر الريف الخلابة. وبعد تناول الطعام شاهدت

التلفاز مع جدها. كانت تفضل الا تكون معه، لكنه لم يترك لها الخيار. وبالرغم من شعورها بالانزعاج في بادىء الامر الا انها فوجئت عندما احضرت السيدة بانكس القهوة بان الساعة قد شارفت منتصف الليل.

كان كال قد غادر البيت بعد العشاء مباشرة. صعدت الى غرفتها لتحضر حقيبتها فسمعت صوت محرك سيارة يزأر نزولا باتجاه مدخل البيت. تساءلت عما اذا كان ذاهباً للقاء هيثر الجميلة. الارجح انه سيفعل. وفجأة وجدت نفسها تتساءل ايضاً عما اذا كان يعانق هيثر بالطريقة التي عانقها فيها اليوم. ابتعدت عن النافذة بتزق وحملت حقيبتها ونزلت الى الصالون. يا لها من افكار سخيفة تضج في رأسها.

كانت مستلقية في فراشها عندما سمعت صوت محرك سيارة الجاكوار امام البيت. ومن خلال اشعة القمر الفضية المتسللة عبر الستائر المرفوعة تبينت فانيسا ان الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. ولشدة استغرابها، اكتشفت انها ظلت تنتظر حتى سماع هذا الصوت. والآن، بعد ان اطمأنت الى عودته، يمكنها ان تذهب الى النوم... وهكذا صار.

الأيام القليلة التالية كانت ايام عمل بالنسبة لفانيسا ولوري. وبقدر ما وجدت نفسها غارقة في الكتب، وجدت افكارها مشغولة ايضاً بالرجل المستحيل الذي اسمه كالوم غرين. اما مشاعرها تجاه جدها فكانت متضاربة. لقد شاهدت منه ملامح من الوصف الذي اعطاه والدها الراحل، لكنه في معظم الأحيان الرجل الطيب المرح. بدأت تشعر بالارتباك الداخلي ليتها تستطيع الثقة بأحد كي تطلب منه النصح. وفي بعض المرات كانت تجتاحها موجات من الندم، ولكنها لا تستطيع ان تبدل شيئاً. الشخص الوحيد الذي يعرف سبب وجودها في دينستون هاوس موجود في لندن، ومن الصعب ان يتعاطف معها. فقد رفض السيد مورتون فكرتها من الاساس، والارجح انه سينصحها بترك المكان او بالابلاغ عن الحقيقة قبل فوات الأوان. لكنها قطعت شوطاً بعيداً جداً بحيث لم تعد قادرة على التراجع.

ترددت وهي ترجع كتابين قديمين جداً الى المكتبة، وقد اعتراها شعور غريب بالوحدة والانعزال. كان الوقت بعد الظهر من يوم جمعة بارد ومظلم وليس كالأيام التي سبقته. الغيوم الداكنة تلبد وجه السماء واعدة بالمطر

الغزير. وتمنت لو ان لوري يعود من الغداء بسرعة، خاصة انه يرافقها يومياً في عملها في المكتبة.

لقد أقامت مع لوري علاقة صداقة محببة خلال اسبوع من العمل اليومي المتواصل. ومع ذلك لم تكن متأكدة من انه اهل للثقة، اذ شاهدته عدة مرات وهو ينظر اليها نظرات تعرف معناها تماماً ولم تكن مهتمة للأمر، فقد اصبحت قادرة على التأقلم كونها غير مهتمة به كرجل. وباصرار شديد ابعدت صورة كال عن ذهنها. . . كال الموجود دائماً والذي يراقبها دون ان يبدو عليه ذلك.

دخل كال الى الغرفة في هذه اللحظات بدون ان يصدر اي صوت، وفوجئت فانيسا بوجوده فسقطت الكتب من يدها.

اقترب نحوها وانحنى يلتقط الكتب:

«يجب ان لا يرى الجدّ هذه الحادثة. فالكتب قديمة جداً ومهمة» سلم الكتب الى فانيسا وهو يضحك.

«شكراً لك» واستدارت نصف دورة وهي تقول:

«لو لم تتسلل الى المكتبة لما كنت اسقطت الكتب».

«هل كنت اتسلل؟».

نظر الى حذائه المطاطي الخفيف واضاف قائلا:

«لربما يجب ان انتعل حذاء التسلق عندما ادخل الى هنا. صحيح انه سيزعجني، لكنك ستعرفين انني هنا. الا تفضلين هذا الحل؟».

«بدون سخافات ارجوك!».

حاولت الوصول الى كتاب في الرف العلوي فلم تستطع رغم طولها، وكان هو اسرع منها اليه فناولها اياه.

سألها بعد ان تناولت الكتاب مستعملة يدها المصابة:

«يبدو ان يدك افضل اليوم؟».

«أجل. هناك ندوب حمراء فقط ستزول مع الوقت».

«ستزول خلال اسبوع تقريباً. هل تستطيعين الآن اخذ اول درس من تمارين الدفاع عن النفس؟».

لم تستطع مقاومة العرض، ولم تكن ترغب في القبول ايضاً لكن الكلمات خرجت تلقائياً:

«هل الدروس للدفاع عن نفسي ضد اناس مثلك يريدون عناقي بالقوة؟».

ضحك كال غرين عالياً، فبانت اسنانه البيضاء اللامعة وسط وجه كان كل ما فيه يضحك، واعترف قائلا:

«هذه فكرة ممتازة، ويجب ان اراقب نفسي جيداً، اليس كذلك؟».

شعرت بالضيق من استمرار الحوار، لذلك ابتعدت عنه لمتابعة عملها وهي تقول:

«اعتقد ان هناك اشياء كثيرة تحتاج الى ترتيب، لذلك يجب ان. . .».

وقاطعها قائلا:

«. . . وخائفة ايضاً؟».

ومع ان صوته كان ناعماً، الا انه اوقفها في مكانها.

ابتسمت بأفضل ما تستطيع وقالت:

«منك انت؟ ابداً».

كانا يحدقان ببعضهما وقد خيّم جو من التوتر الذي ينذر بالانفجار في اية لحظة. واعتقدت انه سيثير مجدداً موضوع شخصيتها الحقيقية لذلك سارعت الى القول:

«اذا كنت تريد تدريبي، فانا اقبل. لكنني لست افهم سبب الحاحك!».

«لقد شاهدت تعابير وجهك عندما هرعت الى سيارتي الاسبوع الماضي. كنت عاجزة تماماً!».

«حسناً، كنت خائفة بالطبع. لكن. . .».

«لن تكوني في مثل هذه الحالة ابداً عندما انتهي من تدريبك. فمتى نبدأ، غداً صباحاً؟».

وسألته بنعومة:

«ألست مشغولا؟ أقصد غداً السبت!».

«لا شيء يستحق الذكر». واضاف بلطف واضح «حسناً، سأراك في غرفة الرياضة بعد ساعة من الافطار».

وتساءلت باهتمام ملحوظ:

«ماذا يجب ان ارتدي»؟

لاح خيال ابتسامة على شفتيه وهو يقول:

«يمكنك ارتداء بذة التدريب الخاصة بالجيدو. هناك مجموعة منها سأحضر لك واحدة عند الصباح، فذلك افضل من تعريض ملابسك للشد والتمزيق. ومع ذلك يجب ان ترتدي قميصاً داخلياً تحت ملابس الجيدو».

قالت وهي تضع الكتب على الطاولة:

«حسناً، هل يمكن ان اتابع عملي الآن؟».

«اجل. لقد جئت لابلغك انني والسيد ماكلين سنتناول العشاء في الخارج. وهو يسألك اذا كنت ترغبين في تناول العشاء في غرفتك؟».

«أفضل ذلك».

ولكنها كانت تفكر بتردده عندما نطق اسم السيد ماكلين، اذ بدا وكأنه على وشك ان يضيف شيئاً ثم توقف. فماذا يريد ان يقول؟ ما هو الشيء الذي يخفيه حتى الآن؟

ولم تأخذها افكارها الى ابعد من ذلك. فمن غير المعقول ان يعرف شخصيتها الحقيقية. ترى هل يمكن ذلك؟

وعلى الرغم مما كان يدور في ذهنه، فانه لن يلح الآن، اذ هز رأسه مودعاً وغادر الغرفة. ظلت فانيسا شاردة الذهن تراقب الباب المشرع، تساءلت وهي تعض على شفتها السفلى عن المأزق الذي وضعت نفسها فيه وعما تخبئه لها الأيام المقبلة.

أطل صباح يوم السبت مشرقاً ودافئاً، بعد ان رحلت غيوم الامس بعيداً. استيقظت فانيسا وهي تحسّ بقلق خفيّ وغريب. ثم تذكرت ان كال غرين سيعطيها اول درس في الدفاع عن النفس اليوم. لم تعد قادرة على الثقة فيه فباتت تشك بكل ما يقوله او يفعله. ما هي خلفيات هذا العرض؟ وظل السؤال يلحّ طيلة الوقت الذي امضته في الاستحمام وارتداء ملابسها. عليها ان تستعد لأية اسئلة محرجة قد يطرحها، خاصة انهما سيكونان وحدهما في غرفة الرياضة.

ارتدت سترة صوفية بيضاء على فستان ازرق سماوي، وانتعلت صندالا خفيفاً، ثم تركت شعرها الاسود حراً منسدلا... واخيراً لمسة من احمر الشفاه، وها هي جاهزة الآن. كانت الساعة الثامنة والنصف عندما

نزلت الى غرفة الطعام. تعمّدت النزول باكراً كي تتناول افطارها وحيدة اذا امكن، لكن كال غرين كان قد سبقها، بل وعلى وشك انهاء فطوره.

حيّاها قائلا: «صباح الخير».

«صباح النور».

وتناولت قطعة من الخبز بعد ان جلست في مواجهته.

رفع عينيه اليها وقال:

«تريدين بعض البيض باللحم؟».

«لست جائعة كثيراً».

سألها بنغمة هادئة:

«هل انت متوترة الاعصاب؟».

نظرت اليه ببرود وقالت:

«متوترة الاعصاب؟ كلا. ولماذا التوتر؟».

«لا شيء. لكن يبدو لي انك- اعذري كلامي- شبه ضائعة».

«لا بد ان خيالك يزين لك الامور».

وتابعت حديثها بحذر بالغ لأن عينيه بدأتا البحث في تعابير وجهها:

«لكن الحكمة تقضي بان لا اثقل معدتي قبل بدء التمارين».

«صحيح. انه موقف سليم جداً. ولذلك قررت البدء بالتمارين بعد ساعة من الأكل».

«حسناً جداً. وبالنسبة الى البذلة الرياضية فارجو ان لا تزعج نفسك باحضارها لي. سأرتديها تحت عندما انزل، فهناك مكان لتغيير الملابس، اليس كذلك؟».

«عظيم. سأجهز لك واحدة، والآن اسمحي لي ان اذهب لأستعد».

وقف واعاد الكرسي الى مكانه، ثم اضاف:

«لن يفطر السيد ماكلين معنا فقد اضطر الى مغادرة البيت باكراً. اذن سأراك حوالى...» واختلس نظره الى الساعة وتابع «حوالى العاشرة الا ربعاً في غرفة الرياضة؟».

«أجل».

راقبته وهو يغادر الغرفة ثم سكبت لنفسها فنجاناً آخر من القهوة. كم كانت غبية عندما قبلت عرضه في الأساس!

في تمام الساعة العاشرة الا عشرين دقيقة توجهت فانيسا الى غرفة الرياضة. وبعيداً عن ملامح الهدوء المرتسمة على وجهها، كان داخلها يعتمل بمشاعر التوتر والقلق والترقب. فمهما حدث، يجب ان تخفي احاسيسها الداخلية كي لا يشمت كال بها. لا تراجع الآن. ترددت قليلا امام الباب، اذ بمجرد دخولها الى الغرفة عليها ان تستمرّ في اللعبة حتى النهاية. استجمعت انفاسها وفتحت الباب بسرعة.

المكان غارق في سكون عميق، فكال غرين لم يأت بعد. تمعنت فانيسا في فرشة الجيدو الموضوعة وسط الساحة وهي تتجه الى غرفة تبديل الملابس. وقبل ان تدخل تمهّلت، اذ انها سمعت ما بدا لها وكأنه صوت امام الباب الخارجي. وعندما لم يتكرر الصوت استدارت لتدخل، فاصطدمت مباشرة بالرجل الذي خرج لتوه من غرفة تغيير الملابس. امتدت يدا الرجل لاسناد فانيسا. كان يرتدي ملابس الجيدو البيضاء، التي طالما شاهدتها في الصور وعلى شاشة التلفاز ولكن ليس في الواقع. وبسرعة لاحظت التغيير الذي طرأ عليه. فقد اظهرت الملابس قامته الممتلئة وكتفيه العريضين.. ومن خلال فتحة السترة بان القسم الأعلى من صدره الكثيف الشعر.

حاولت فانيسا استعادة توازنها بعد هذه الصدمة. ولو كانت قادرة على الهرب فوراً لما ترددت، لكنه امسك بها بقوة ولم يتركها الا عندما هدأت.

«هذا انا!» كان صوته نقياً، وعيناه مركزتين عليها. «ملابسك في الغرفة الثانية، والافضل ان اعلمك كيف تربطين الحزام حول خصرك. فهيا بنا».

ابتعد عن الباب ليفسح لها مجال الدخول. وكمن يساق الى ساحة الاعدام، دخلت فانيسا الغرفة الثانية ببطء وهي مطأطأة الرأس.

٦ - السر الدفين!

«لقد غيّرت رأيي، فلننس الأمر برمته».

اختلجت هذه الكلمات على شفتي فانيسا وهي تواجه كال غرين على فرشة الجيدو، لكنها لم تستطع ان تنطقها ابداً. اخبرها ان الفرشة مصنوعة من التاتامي وهي عيدان نبات الأرز بعد حصاده وتجفيفه. المعلومات غير مهمة بالنسبة لها، المهم وجودها اساساً في هذا المكان. نظرت الى نفسها في الرداء الأبيض فأدركت لماذا طلب منها كال ان ترتدي قميصاً داخلياً، ذلك ان الرداء كان فضفاضاً بالرغم من الحزام الذي يشده حول خصرها. وعندما ربط لها الحزام، ابلغها ان السترة كثيراً ما تتمزق خلال التدريب، وطلب منها بابتسامة خفيفة الا تهتم، على الأقل في المراحل الأولى.

لاحظت فانيسا ان كال قد تغير بشكل يصعب تحديده. بدا وكأنه انسان اخر تماماً. فهو هادىء وواثق من نفسه بطريقة لم تعهدها فيه. نظر اليها وقال:

«اولاً، وقبل كل شيء، يجب ان نحمي انفسنا، اي ان نعد عضلاتنا للحركة. فأريدك ان تراقبيني وتنفذي ما افعل بحذافيره. هل انت جاهزة؟».

«انا جاهزة».

مررت فانيسا لسانها لترطب شفتيها الجافتين. عليها ان تركز على التدريب. فمهما كانت الأسباب التي تدفعه الى مساعدتها، لا شك انها ستستفيد من دروس الدفاع عن النفس، ولهذا السبب فقط يجب ان تعترف له بالجميل. بدأت تكتشف ان حركات التحمية سهلة المتابعة، وسرعان ما

شعرت بأن عضلاتها لانت وارتخت خاصة عندما نفذت القفزات الأمامية التي كانت تعتقد انها عاجزة عن القيام بها.

«يكفي هذا، لننتقل الى المرحلة الثانية».

توجه اليها وهو يقول:

«قفي منتصبة واريحي جسدك. اجل هكذا.. كلا، رقبتك ما تزال متصلبة. ارخيها تماماً».

كانت لمسته قوية دون قسوة ولا تحمل اي معنى شخصي. حركت فانيسا رأسها استجابة لحركات اصابعه، وسمعته يقول:

«هذا افضل. والآن، قبل ان اعلمك حركات جديدة، يجب ان تتعلمي السقوط الدفاعي بحيث لا تؤذين نفسك اذا ما سقطت».

«انا مستعدة».

استغربت كيف ظلت تحس دفء لمسته بالرغم من انه سحب اصابعه منذ فترة. اخذت نفساً عميقاً لتسكن روعها وتمنت فعلاً لو انها تستطيع ان ترتاح كما يطلب منها. كم ستكون الأمور اسهل اذا ما تناست شكوكها حول كال، وركزت على...

«هل تسمعينني يا فانيسا؟».

«انا متأسفة».

تضرج خداها بالدم لملاحظته، نظرت اليه فلم تر اية تعابير خاصة على وجهه. جو العداء والتوتر ذهب الى غير رجعة، وكلامه كان هادئاً ورصيناً. لذلك شعرت بالراحة.

«استلقي الآن. سأقوم امامك بالسقطة الدفاعية».

وسرعان ما استلقى على ظهره بحركة واحدة قوية.

«والآن راقبيني، اولاً يجب ان تمارسي هذه الحركة، ثم تأتي حركة الانحناء البسيط المؤدية الى السقطة المريحة.. واذا ما نفذت الحركة بحذافيرها ستجدين ان بامكانك السقوط دون اي اذى».

تابعت فانيسا مراقبة هذا الرجل، كان هناك شيء جذاب حوله، وهي تريد ان تتعلم بسرعة كي تثبت له انها تلميذة مجتهدة. وهكذا لاحظت حركاته، راقبته وهو يندحرج على يمينه ويده ممتدة على طولها، لتقيه صدمة الارتطام بالأرض ثم تأتي قدماه لأكمال الحركة. على وجهه امارات التركيز

الشديد، لكن كلماته كانت هادئة طيلة الوقت وهو يخبرها عن تفاصيل السقطة الجانبية «يوكويوكومي». وعن الاسماء اليابانية للعبة معروفة عالمياً بحيث ان الناس الذين لا يعرفون الا لغتهم القومية قادرون على فهم التعابير كاملة.

فجأة انتفض واقفاً. جاء صوته عميقاً وهو يقول:

«هيا، استلقي ارضاً، لقد حان دورك».

اطاعته فانيسا على الفور، واستلقى هو قريباً منها.

«هذه هي الطريقة، الذراع ممدودة على طولها، حسناً، والآن طبقي ما اقوم به».

احست فانيسا بالضياع لفترة قصيرة. فقد كان هناك شيء غريب حول كال غرين وهو يلعب دور المدرب الغريب القادر على اداء مهمته بنجاح. فمع كل حركة وكل كلمة وكل لمسة مساعدة منه كان جسمها يستجيب بسهولة. انها تريد اتقان اللعبة.

وعلى حين غرة طلب منها ان تتوقف:

«هذا يكفي. دعينا ننتقل الى المرحلة التالية، فهل انت مستعدة؟».

«اعتقد ذلك. هل كنت على ما يرام؟».

اجابها بهدوء:

«لا بأس بك».

ولكنها شعرت بانه مسرور من ادائها بدون ان تدري سبب هذا الشعور. جعلها تعيد تنفيذ السقطة الأمامية، اولاً من موقع الوقوف، مساعداً اياها على اخفاء رأسها داخل جسمها وتقريب القدم اليسرى على اليمنى ثم من موقع الحركة... وكل ذلك بدون ان تبدو عليه اية مشاعر او تعابير.

«يكفي الآن، سنأخذ قسطاً من الراحة. اجلسي على الفرشة وسأقوم اماك ببعض الحركات. بينما تريحين نفسك قليلاً. فيجب ان لا تجهدي نفسك، وارجو ان تخبريني حين تشعرين بالتعب».

ومع انها راقبت الحركات التي اداها خلال الدقائق القليلة التالية الا ان اهتمامها لم يكن مركزاً فيها. لقد اخبرها قبل ان يبدأ انه لن يعلمها اية سقطات غير السقطة الأولى، على الأقل في هذه المرحلة، لكن لا شيء يمنع

من ان يعرض امامها بعض الألعاب التي سيأتي دورها لاحقاً. وجدت نفسها معجبة بحركاته الرائعة. تعرف تماماً انها لن تستطيع تنفيذ ما يقوم به، وهو بدوره لا يتوقع منها ذلك. ولكن الذي اثار اعجابها هو الرجل نفسه، فلقد كان انساناً مميزاً. لم تكن ملابسه وحدها مختلفة. بل تغيرت كل تصرفاته وتعابيره بطريقة جعلتها تشعر - واستغربت ذلك كثيراً - بالاحترام الشديد له. كان واثقاً مما يقوم به، بالاضافة الى قدرته على افهام فانيسا طبيعة الحركات الصعبة . . فاستعادت ثقتها بنفسها بعد ثوان قليلة من نزولها الى الحلبة وبالتالي تمكنت من اتباع كافة التعليمات التي اعطاها.

عادت الى الواقع عندما انهى كال حركاته الاستعراضية. سألها:

«هل انت مستعدة؟».

كان شعره مبعثراً وقد تدلت خصلة منه على جبينه. وجاهدت فانيسا كي تمنع رغبة راودتها بأن تذهب اليه وترفع عن عينيه هذه الخصلة المتمردة. كانت الفكرة مضحكة. فماذا سيقول اذا ما نفذتها فعلاً؟

«اما زلت متعبة؟».

نظرت الى جبينه حيث ظهرت حبيبات من العرق. كان جو الغرفة دافئاً. واحست فانيسا بحاجة الى كأس من الماء البارد، لكنها لم تتجرأ على الطلب. واجابته قائلة:

«اشعر بشيء من التعب، لكن لا شيء يهم؟».

ابتسم كال بهدوء، وقال:

«يجب ان لا تجهدي نفسك. لا فائدة ترجى من التدريب اذا كانت عضلاتك لا تستجيب. فالمسألة تحتاج الى وقت».

«انا متأكدة من ذلك، فأنت مدرب ممتاز».

لم تكن تنوي اطلاق هذا التعبير، لكن الكلام افلت قبل ان تفكر فيه.

«شكراً لك، فلقد بدأت التدريب باكراً».

«انت تحمل الحزام الأسود».

ولم تكن تنتظر جواباً لأنه كان موجوداً على خصره.

«انا احمل الحزام الأسود، اما السيد ماكلين فيحمل الحزام البني. . . انه بارع في اللعبة بالنسبة الى سنه».

«لهذا السبب انت هنا؟ اقصد كي تدربه؟».

هز رأسه بالنفي وقال:

«لا ابداً. انا ضيف هنا فأبي كان صديقاً حميماً للسيد ماكلين. ولذلك اخترت المكان لأقوم ببعض الكتابة. . .».

تردد قبل الكلمة الاخيرة ثم تابع:

«كتابة بعض الأشياء الخاصة، وايضاً جولات تدريبية في الجيدو».

ادارت فانيسا رأسها الى ناحية اخرى من الغرفة كي تخفي عن كال تعابير وجهها التي قد تكشف افكارها. . . لكنها نسيت انه يقرأ الافكار ايضاً. احست باصابعه على ذقنها تعيد وجهها الى مكانه، ونظر الى عينيها مباشرة وهو يقول:

«هيا، قولي ما تفكرين فيه!».

«اقول ماذا؟».

«افكارك التي اخفيتها. . من انني مجرد شخص كسول يمضي وقته متسكعاً هنا».

«لا تكن سخيفاً».

حاولت ان يخرج صوتها واثقاً وقوياً، اخر شيء تريده الآن الدخول في جدال معه. ليس الآن، فهما في حالة جيدة ومن العيب افساد كل شيء.

«لا الومك اذا فكرت بتلك الطريقة». وفاجأها بقوله هذا. «انا سأفكر بالطريقة نفسها لو كنت مكانك. لكنني فعلاً اشتغل في اعداد كتاب».

«رواية؟».

ندمت لأنها سألت مرة اخرى. فبقدر ما تبتعد عن تفاصيل حياته الخاصة بقدر ما تمنعه من العودة الى طرح الاسئلة المحرجة. وهو الشيء الذي لا تريده مطلقاً. ولكن السؤال كان نادباً.

«ليس رواية، انه كتاب عن الرحلات. لقد عدت للتو من جولة اوروبية واسعة، واريد ان اكتب انطباعاتي عنها».

واكتفت بوضع علامة تعجب على وجهها وقررت ان تعود الى التدريب بسرعة. فالشيء الوحيد الذي تفكر فيه حالياً هو ابعاده عن التساؤل حول سبب وجودها في دينستون هاوس. قالت:

«هل يمكن ان نعود الى التدريب؟».

«بالطبع. الآن وقد تعلمت السقطة الدفاعية - وبشكل ممتاز بالنسبة

لشخص مبتدىء - فسنقوم ببعض الحركات المشتركة. سوف ارميك..»
لكنه توقف عندما لاحظ خوفها من هذه العبارة واوضح قائلاً: «ليس بالمعنى الكامل، اذ سأوقف الحركة قبل الوصول الى الأرض. انها استمرار لما كنت اقوم به منفرداً».

امسك كل واحد منهما كم الآخر وهما يواجهان بعضهما البعض.

«احكمي قبضتك على كمي مهما حدث، وثقي بي».

وفجأة، احست بقبضته تشتد في حين بدأ جسمه يتحرك. رأته ينحني على اطراف اصابعه، ولم تشعر الا وهي فاقدة التوازن. ثم دخل كتف كال تحت ذراعها وازداد جسمه انحناء. وبحركة واحدة منه وجدت نفسها مرمية من فوق كتفه.

وفي لحظة رعب ادركت انها فقدت اتصالها بالأرض، لكن دفعة لطيفة منه اكملت الحركة والقتها الى الفرشة. ودون ان تدري نفذت السقطة الأمامية، واصطدمت بالأرض دون اية صعوبات. وعندما نهضت، رأت كال يبتسم بعمق. كان شعورها مزيجاً من الاعجاب والارتياح والضيق. فقد احست، رغم انه تصرف معها بلامبالاة، بشيء خاص في لمساته... آه كم كان قوياً في حركته.

«مرة اخرى؟ لم تكن الحركة سيئة على الاطلاق!».

اخذت نفساً عميقاً وقالت:

«لم تكن سيئة. فقد شعرت انني ساطير».

«قلت لك ان تثقي بي». واضاف بلهجة هادئة «لا اظنك تعتقدين بأنني ساتركك تقعين بالفعل!».

«لست ادري ما يمكن ان اعتقد بشأنك».

مرة اخرى ندمت لأن لسانها سبق عقلها. لقد فات الأوان، اذ تغيرت تعابير وجهه قليلاً، ثم ابتسم:

«اعرف ذلك فالشعور متبادل. انا ايضاً لا ادري ما اعتقد بشأنك».

ارادت ان تبتعد عنه على الفور. وضعت يدها على جبينها وقالت:

«كم مضى على وجودنا هنا؟».

«حوالى الساعة. لماذا؟ هل اكتفيت؟».

كان يراقبها بتمعّن، وقد بدأ جو التوتر يهيمن مجدداً على الغرفة. خافت

فانيسا من الوضع وارادت ان تهرب منه بسرعة:

«ان قدمي متعبتان قليلا».

اعترفت بدون الحاجة الى الكذب، فالتعب قد حل بها فعلا.

«اذن ستتوقف. لقد طلبت منك ان تبلغيني متى تعبت، على كل ستتابع الدروس غداً. عندها ستكون الامور افضل. وتستطيعين تعلم الحركات اسرع بعد تمارين اليوم».

فكرت فانيسا بطريقة تخرجها من هذه الورطة. ثم ادركت ان هناك متسعاً من الوقت لتفكر في اعذار اذا وجدت ذلك ضرورياً. وكان كال متعباً الى حد ما فلم يلحظ ترددها في الاجابة.

«اجل، الموعد غداً سيكون ممتازاً».

«بعد الظهر، حوالى الثالثة؟».

«موافقة. يجب ان اذهب الآن. سأبدل ملابسي في غرفتي. وساعيد لك البزة فيما بعد».

اجابها:

«احتفظي بها للغد، فستحتاجين اليها كثيراً».

«شكراً على الدرس».

نطقت هذه العبارة وهي تدخل الى غرفة تغيير الملابس لتأخذ صندلها. وانتظرت حتى اختفى في الغرفة الثانية، ثم اطلقت ساقيها هرباً الى غرفتها.

لم يخبرها احد ان هيثر ووالدتها ستكونان على العشاء تلك الليلة، ولذلك احست بانها خدعت عندما دخلت غرفة الطعام ووجدتها مع كال وجدها وهم يتحدثون ويضحكون. كان كال مشغولا في حديث هامس مع هيثر، بينما جدها يضحك لعبارات اطلقتها السيدة ماكري. ترددت فانيسا في الدخول كي لا تحطم ما اعتبرته جواً مكتملا، وفكّرت في العودة من حيث اتت. لكنها تأخرت، لان كال سمعها، فاستدار قائلا «ها هي فانيسا» استدار جدها ايضاً وقال:

«تعالي يا فانيسا، تعالي. لقد تعرفت اليها يا آن على ما اعتقد؟».

ابتسمت السيدة ماكري ملء فمها وقالت:

«كيف حالك يا عزيزتي؟».

«على احسن ما يرام. شكراً لك يا سيدة ماكري».

ردت فانيسا التحية بأحسن منها. فهذه الامرأة الطف كثيراً من ابنتها. وتأسفت لأن ذوق السيدة ماكري في الملابس ضعيف جداً. كان ثوبها الطويل غير مناسب لها، لونه الاصفر الفاقع انعكس على وجهها فزاده ضعفاً وشحوباً. اما جدها فقد كان شديد الاهتمام بهذه الامرأة، وشاهدت فانيسا في عينيه نظرة دفء وهو يرنو اليها، وفكرت فانيسا في سرها: «لا شك انه يحبها» واحست بشعور غريب لهذه الفكرة. هل كال على علاقة حب مع الابنة ايضاً؟ وهل هذا هو السبب الذي جعلها تبقى؟ وسرعان ما وجدت نظراتها تلاحق الاثنين اللذين وقفا بالقرب من النافذة. من الصعب ان تفهم علاقتهما، فرجل مثل كال يستطيع ان يخفي كل مشاعره اذا اراد، ولكنه الآن لا يظهر الا الاهتمام الشديد بهذه الفتاة الجميلة. رأته يشعل لها سيكارتها، ولاحظت ان يدها لامست يده لثوان وهو يقرب الولاعة من السيكارة. استدارت فانيسا بسرعة وسمعت جدها يقول «والآن يا فانيسا، حدثينا عن درسك الاول اليوم؟».

احدث السؤال جواً من الصمت في الغرفة. وبدا لفانيسا ان هيثر اصغت بكل جوارحها. والآن كيف تستطيع الاجابة على السؤال بدون ان تزيد في عداء الشقراء الجميلة لها؟ كم تتمنى لو انها لم تأت ابداً!

«كل شيء كان على ما يرام. شعرت بعد انتهاء الدرس ببعض التصلب، لكنه زال بسرعة».

واضافت تقول لنفسها: «ارجوكم، دعونا نغير الموضوع برمته».

تساءلت آن ماكري بصوتها الواضح العالي:

«اي درس تقصد يا اندرو؟».

ضحك اندرو ماكلين وهو يقول:

«يعتقد كال ان فانيسا تحتاج الى بعض الدروس في الدفاع عن النفس، لذلك اخذها الى غرفة الرياضة هذا الصباح وعلمها بعض الحركات».

التفتت السيدة ماكري ببطء الى فانيسا التي احست بقلبها يغرق بين اضلعها.

«حقاً؟».

انه شيء ممتع. وتابع الصوت البارد يقول:

«اخبريني، هل وجدت الامر صعباً، اقصد اليست الدروس قاسية عليك؟».

وبدت علامات الاشمئزاز على وجهها عندما طرحت السؤال الأخير.

«لقد تعلمت اولا السقطة الدفاعية، هذه كانت سهلة الى حد ما».

عندها لاحظت فانيسا تعابير هيثر، حيث الغضب المكتوم يزأر في العينين الجميلتين. ليس لديها شيء تخسره، فهي لم تباشر الحديث ولذلك فليتحمل الآخرون مسؤولياتهم، فتابعت تقول:

«ثم علمني كال شيئاً مختلفاً تماماً وهو عبارة عن رمي الى الارض بدون الاصطدام بها.. كانت الحركة ممتازة».

ولم تعرف لماذا التفتت الى كال وابتسمت له، كما لم تعرف ما الذي يدفعها الى هذا الموقف. غداً ستفكر في الأمر، اما الآن فهي لا تهتم ابداً.

هز كال رأسه بدون ان يظهر اي تعبير وقال:

«كانت حركة سهلة للغاية. وعما قريب ستستطيعين اتقان الاصعب».

«انك مدرب رائع».

كان الجميع يراقبونها: جدها باهتمام ملحوظ، والسيدة ماكري بامتعاض بالغ، وهيثر بعداء سافر... اما كال، فقد بدا وكأنه يتمتع بالموقف كله.

«.. وقوي جداً ايضاً».

ابتسمت بعمق وهي تنظر الى هيثر. فكرت في نفسها: «فلتعتقد ما تشاء حول الدروس واذا ما صدقت توقعاتي فان كال سيواجه المتاعب فيما بعد». انها غير مهتمة ابداً. تابعت وهي تنظر الى جدها ولكن الحديث موجه الى هيثر الجميلة:

«فما ان رفعني حتى رماني ثم انزلني بلطف الى الارض، وكل ذلك دون ان يتركني. كان الاحساس عميقاً ومخيفاً الى حد ما، ولكنني لم ارتعب».

هز اندرو ماكلين رأسه انفعالا وقال:

«كم اتمنى لو انني كنت هناك!».

ثم تكلمت هيثر بهدوء، لكن فانيسا شعرت بالغضب الكامن في داخلها:

«لم تخبرني يا كال بانك خبير في لعبة الجيدو».

«لم اعتقد انك مهتمة بهذه الناحية يا عزيزتي».

كم هو يختلف الآن عن مدرب الجيدو البارد الاعصاب الذي كانه قبل ساعات.

دخلت السيدة بانكس بالطعام المكوّن من السمك المشوي والعجة والبطاطا، فتوجه الجميع الى مقاعدهم.. وهدأت ردود الفعل. لماذا كان عليها ان تثير غضب هيثر الى هذا الحد؟ خاصة ان الامسية ما تزال في اولها. قررت ان تذهب الى غرفتها فور انتهاء العشاء. وعندما ابلغت جدها عن رغبتها في الاستئذان والانصراف وافق على ذلك عن طيب خاطر. وادركت انه لا يريد اية مشاكل باعتبار ان هيثر ووالدتها صديقتان مقربتان، وخاصة الأم.

امتلأت نفس فانيسا ببعض مشاعر الحزن وهي تصعد السلالم، ولما وصلت الى غرفتها احست بالوحدة تجتاحها بعمق.. وظلت تسيطر عليها صورة المجموعة التي ما زالت تمضي الليل في الصالون ضاحكة ومستأنسة. لقد كانت الغريبة غير المرغوبة بينهم.

لم تستطع ان تقرأ اياً من الكتب التي استعارتها. ولا ان تشاهد برامج التلفاز المنوعة. وبعد نصف ساعة من التنقل بين مسلسل تلفازي قديم، وكتاب بوليسي ممل، رمت الكتاب على السرير بنزق واقفلت الشاشة الصغيرة. ثم تذكرت فجأة الصحف القديمة في المكتبة. يمكن ان تقضي مع هذه الصحف ساعة او اكثر، تذهب بعدها الى النوم بسهولة.

فتحت فانيسا باب غرفتها وتمهلت قليلا للاستماع الى الاصوات المنبعثة من تحت. الاضواء الخفيفة تنير السلالم والقاعة الكبرى في حين تتردد في الصالون اصداء اصوات وضحكات خافتة. لن يسمعها احد الآن اذا ما نزلت الى المكتبة.. وحتى لو سمعوها، فهذا غير مهم.

اضاءت احدى الثريات في المكتبة وتوجهت بهدوء الى المكان الذي وضعت فيه الصحف. وتساءلت اذا كان الافضل لها ان تحمل الصندوق كله الى غرفتها او تكتفي ببعض الاعداد. ففي هذه المجموعة اشياء كثيرة للقراءة، ولذلك فان بعضها يكفي. ولكن من ناحية اخرى يجب العمل على ترتيبها زمنياً وهذا يعني اخذها كلها. لذلك قررت حمل المجموعة كاملة للعمل على ترتيبها اولا ومن ثم تقرأها، فهذا يوفر عليها الوقت فيما

بعد. لم يكن الصندوق ثقيلا جداً، ولكنها عندما انحنت لحمله اوقعت احد الكتب على الارض محدثة صوتاً عالياً.

اضطربت قليلا، ثم وضعت الصندوق ارضاً كي تلتقط الكتاب وتعيده الى مكانه. وفجأة طغى ضوء ساطع على الغرفة فالتفتت لتجد كال واقفاً في الباب. وشعرت كانها اعتقلت بالجرم المشهود.

سار باتجاهها وهو يبتسم.

«حسناً، حسناً.. ماذا تفعلين؟».

استعادت فانيسا رباطة جأشها بعد لحظات الاضطراب الاولى وقالت:

«قررت ان احمل الصحف القديمة الى غرفتي للاطلاع عليها.. هذا كل شيء!».

كانت قد تجنبت النظر اليه مباشرة وهما في غرفة الطعام، لكنها فعلت الآن. والواقع ان لا خيار لها سوى النظر الى هذا الرجل الجذاب في بدلته السوداء الفاحمة وقميصه الابيض وربطة عنقه السوداء ايضاً. والذي يتناقض تماماً عما كان عليه في الصباح. بدا وجهه غامضاً ومظلماً لأن الضوء الأساسي كان ينبعث من خلفه. استدارت فانيسا بقلق وانحنت تلتقط الكتاب لتعيده الى الرف.

قال:

«سأحمل لك الصندوق الى غرفتك».

«لا حاجة الى ذلك، فأصدقاؤك سيتساءلون عنك بعد قليل».

لم تقصد ان تثيره بهذا الكلام، لكنها فعلت اذ لاحظت على وجهه ابتسامة غاضبة وهو يتجاوزها نحو الصندوق.

اجابها بجفاء واضح:

«الجو بارد جداً هناك، والفضل في ذلك يعود- بدون شك- الى التفاصيل التي رويتها عن دروس الجيدو».

امتزجت في نفس فانيسا احاسيس هي خليط من الشعور بالذنب لأنها ورطت كال، وايضاً الشعور بالظلم لأنها لم تكن البادئة في الحديث حول الموضوع. استعادت هدوءها وقالت:

«مهما كان الأمر، فلم اكن انا التي اثرت الموضوع في الأساس. وعليك ان تتذكر هذا الواقع».

تضرج خداها بالدم وراح صدرها ينتفض بفعل الغضب، وما لم تنتبه له انذاك انها كانت تبدو جميلة ومثيرة للغاية. والشيء الوحيد الذي خطر على بالها وجه هيثر المنفعل عند سماعها القصة..

«اهدأي الان ايتها القطة المتوحشة».

بدا كال مستمتعاً بغضب فانيسا وهو يحمل صندوق الصحف القديمة. اما فانيسا فلم تكن راغبة في مواصلة الحديث، لذلك استدارت خارجة من المكتبة، وتركته مع الصندوق.. فاذا اراد حمله فليكن، والا فالى الجحيم هو والصحف.

هرعت راكضة طول الطريق الى غرفتها، وعندما وصلتها تمهلت تستمع لوقع خطواته. الأكيد انه لن يأتي! بيضع الصندوق ارضاً ويهز كتفيه العريضتين ويقول:

«الى الجحيم أنت ايضاً»... ثم يعود الى صديقته التي تنتظره.

«اياك ان تهربي مني مرة ثانية».

دخل الغرفة وراءها واغلق الباب بقدمه. وجه اليها النظرة الباردة نفسها ثم وضع الصندوق على الكرسي وقال:

«هل تهربين من الناس دائماً عندما يحمى وطيس النقاش».

اتسعت عينا فانيسا دهشة وهي تقول:

«انا اهرب؟ لا شك انك تمزح. اي نقاش تتحدث عنه؟ لقد قلت لك ببساطة».

«رواية متوازنة بسيطة حول التمارين الصباحية، اجل، سمعت ذلك وشاهدت وجهك، كنت تستمتعين بردة الفعل، اليس كذلك؟».

سارت فانيسا نحو الباب لتفتحه وبدأت تقول:

«هل تسمح؟».

لكنه اوقفها واعادها الى مكانها بسرعة.

«كلا. لن اغادر الغرفة، ليس قبل ان اكون مستعداً».

امسك ذراعها، ومع ان قبضته لم تكن قوية الا انها كانت حازمة بما فيه الكفاية.

«هل تستعمل اسلوب القوة الجسدية دائماً مع النساء اللواتي لا يوافقنك اراءك؟ لا بد انك ربحت العديد من المناقشات بهذا الأسلوب».

ثم سحبت يدها بقوة وقالت:

«دعني لوحدي فوراً».

«لن اتركك. على كل، النساء لسن مثلك كلهن، فانت تملكين طباعاً حادة جداً، تذكرني بشخص...».

تجمدت في مكانها. اتضح الأن السبب الذي جاء من اجله، وسينطق بالكلمة في اية لحظة...

عليها ان تفعل اي شيء لتغيير الموضوع. اي شيء لابعاده عن الموضوع السري الذي تكتمه، فجأة صرخت ألماً، ولاحت الدموع في عينيها، هذه الدموع التي تستطيع سكبها ساعة تشاء:

«انك تؤلمني.. اترك معصمي»...

اطلق سراحها فوراً، ثم رفع ذقنها الى الاعلى ونظر في عينيها بحدة:

«يا الهي.. وتعرفين فن التمثيل ايضاً!».

«لست ادري.. لست ادري ما تقصد».

بدأت تعتاد دورها بسهولة، ما دام قد ابتعد عن الموضوع الأساسي.

اجاب ضاحكاً:

«انت تعرفين تماماً. يا لك من امرأة. ثم ضربها بلطف على ذقنها واضاف «وداعاً يا سارة برنار، كما تعرفين انا لا احتمل منظر الدموع، لذلك ساعود الى تحت حيث الجو اكثر برودة من هنا. ولا شك انني استطيع التعبير عن نفسي بسهولة هناك بدل المشاكل هنا».

وابتسم لها بعمق قبل ان يستدير خارجاً.

وقفت فانيسا في مكانها تراقب الباب المغلق قبل ان تتحرك باتجاه صندوق الصحف. ترددت قليلا، ثم حملته الى طاولة صغيرة تحت النافذة وبدأت بفرز الصحف.

اخرجت حوالى مئتي صحيفة من الصندوق، بعضها كان في حالة رثة وقد اصفرّت اوراقه تماماً، والبعض الآخر ما زال في حالة جيدة. المجموعة تحتاج الى عمل متواصل وطويل، ولكن فانيسا تدرك بانها ستجد فيها اشياء اكثر اهمية مما في الكتب. رفعت حزمة من اعداد جريدة النايمز تعود الى العام ١٨٥٤ ووضعتها على الطاولة. كانت الاوراق صفراء مهلهلة وقد علاها الغبار، وتساءلت فانيسا عن المدة التي ظلت فيها هذه الصحف

مهملة منسية في الصندوق. وفجأة اكتشفت شيئاً مهماً.

الورقتان اللتان وجدتهما كانتا في قعر الصندوق تقريباً. رفعتهما فانيسا بادىء الامر بدون ان تعرف مضمونهما وكانت على وشك ان تضعهما جانباً عندما لاحظت الاسم المكتوب على اعلى كل ورقة.. فتوقفت..

تردد اسم اندرو ماكلين ما لا يقل عن ثلاثين مرة بالنمط نفسه، وكأن شخصاً ما كان يحاول التمرن على تقليد توقيع جدها. قرّبت فانيسا الورقة من الضوء للتمعن في التواقيع فانكشفت الورقة الثانية بما تضمه من كتابة. كانت عبارة عما يشبه رسالة باستثناء كون الكتابة تبدأ من منتصف الورقة. لم تكن فانيسا راغبة في قراءة رسائل الآخرين لكن شيئاً ما دفعها لذلك، فوجدت نفسها تمضي قدماً في القراءة.

الرسالة المكتوبة على الورق كانت على الشكل التالي:

«انا الموقع ادناه، اخول حامل الرسالة جون ماكلين قبض الشيك المرفق، وايضاً سحب محتويات صندوق الودائع الخاص بي والذي يحمل الرقم...».

لم تعد قادرة على القراءة اكثر. فقد ادركت فوراً السبب الذي من اجله تكرر توقيع جدها على الورقة الثانية. قربت الورقتين الى بعضهما. لاحظت ان الرسالة ممهورة بتوقيع هو نسخة مطابقة للتواقيع الموجودة على الورقة الاولى. لا مجال للشك الآن هناك شخص ما تمرّن على تقليد توقيع اندرو ماكلين حتى اتقنه، ثم كتب رسالة التوكيل والشيك طبعاً... ولسبب غير معروف وجدت الورقتان طريقهما الى الصندوق.. ولكن من هو الفاعل؟ ليس هناك سوى جواب واحد، ففانيسا لا تعرف الا شخصاً واحداً يدعى جون ماكلين.. انه ابوها...

خرجت فانيسا الى نزهة صباحية فور الانتهاء من الاستحمام وارتداء ملابسها. موعد الفطور بعد الساعة التاسعة كما كان يوم الاحد الماضي، لكنها لم تكن تشعر بشهية للأكل. فالاكتشاف الذي وقعت عليه مساء امس اثقل عليها نفسها وجسدها ولم يترك مجالا للطعام او الشراب. لا تريد ان تأكل شيئاً. وتشعر الآن وكأنها لن تأكل مرة اخرى في حياتها. تسللت من الباب الامامي بعد ان ارتدت معطفاً ثقيلا، ذلك ان الهواء كان بارداً ومشبعاً بالرطوبة، والضباب يخيّم على البساتين والغابات. استدارت يساراً

وسارت في الممر الطويل مطأطأة الرأس واضعة يديها عميقاً في جيبي معطفها، بدون ان تنتبه الى الرجل الذي كان يراقبها من احدى نوافذ البيت.

ولانها لم تنم امس الا نوماً متقطعاً قلقاً، فقد اظهرت الظلال الداكنة التي تركها السهر تحت عينيها بياض وجهها اكثر من المعتاد. تفرّع الممر الذي تسير عليه الى اتجاهين. اخذت الاتجاه الذي يمر خلف المنزل ثم يمتد مسافة ميل تقريباً. وسارت دون ان تعي ما يدور حولها، ودون ان تعرف الى اين.

لم تعد فانيسا ترى سوى ورقة تحمل تواقيع مزورة- الارجح من قبل ابيها- وهذا ما يجعله مجرماً، ان لم يكن في الواقع فعلى الاقل بالنية. هل مضى والدها قدماً في عمليته؟ وهل نجح في التزوير ام اكتشفوه؟ لن تجرؤ على سؤال احد، ابداً. وادركت الآن ان مجيئها الى دينستون هاوس، مع كل الاسباب الموجبة لذلك، قد انهار وتفتت. من يستطيع القول الآن ان والدها كان على حق في كل ما اخبرها به من ان جدها كان قاسياً ومجحفاً بحق ابنه الوحيد؟ ربما كانت له اسبابه المعقولة؟ لقد صدقت فانيسا كل القصص التي حدثها بها والدها عن معاملة اندرو ماكلين السيئة، عن بخله في المال، عن رفضه السماح له باختيار شريكة حياته، وعن اشياء اخرى كثيرة.. بحيث اضطر اخيرا الى ترك المنزل وتأسيس حياة خاصة به. لكنه لم يشر ابداً الى التواقيع المزورة، وربما ترك اشياء كثيرة اخرى دون ان يبوح بها.. وتذكرت فانيسا ادمان والدها على المقامرة وكيف كان يطلب منها اختيار اسماء احصنة السباق. كان الامر طريفاً وهي طفلة، طفلة تحب والدها حتى الجنون.. لكن هذه الطفلة لم تكن قادرة على فهم دموع امها. او نقاش والديها حول المال. وفجأة طغت على ذهنها صورة واضحة تماماً، مثل صورة نصف مكتملة جاءت الاجزاء الناقصة لترسم معالمها الجلية. تابعت السير وكأنها تحاول الهرب من سيل الذكريات المزعجة.. ثم جاء صوت مفاجىء:

«صباح الخير. اليس الوقت مبكراً على النزهات الصباحية؟».

رفعت رأسها لتجد لوري واقفاً امامها، والى يمينها بعض الابنية الريفية الرمادية.

«صباح النور. كنت بحاجة الى نزهة صباحية».

سألها لوري باهتمام:

«هل انت على ما يرام؟».

عاد القلق الى نفسها خوفاً من ان يكتشف فيها شيئاً غريباً.

«كل شيء طبيعي، فماذا تقصد بسؤالك؟».

«وجهك شاحب اللون، ويؤسفني ان اقول انك كمن خرج لتوه من صدمة عنيفة. فاذا كنت تشعرين بالانزعاج، فانا على استعداد للبقاء معك قليلاً».

جاهدت فانيسا كي تبتسم له:

«شكراً يا لوري، لا ضرورة لذلك فسوف اعود الى البيت بعد قليل، على فكرة، ماذا يوجد في نهاية هذا الممر؟».

«لا شيء مجرد بحيرة صغيرة، وبعض الاشجار وبيت ريفي مهجور، فالممر يستمر لمدة ميل تقريباً ثم يعود الى البيت الرئيسي من الجهة الاخرى. هل تريدين ان آخذك اليه؟».

«لا، شكراً لك».

احست بدوخة خفيفة عندما هزت رأسها بالنفي. مد لوري ذراعه لها وقال:

«تعالي معي، فليس في البيت غير امي وهي ستعد لك فنجاناً من الشاي».

اغراء الشاي كان كبيراً، لكنها لم تكن راغبة في الوقت الحالي بمقابلة اي انسان. تريد فقط ان تكون لوحدها وتفكر بكل شيء.. وهي غير مستعدة لمحادثة احد.

«شكراً يا لوري، سأعود الآن الى البيت، فارجوك ان لا ترافقني.. صدقني انا بحالة جيدة».

«حسناً، انا ذاهب بالاتجاه نفسه في اي حال، فهيا بنا».

لا مجال الآن للهرب منه، والافضل ان تلجأ الى غرفتها باسرع ما يمكن.

ابتسمت بعمق هذه المرة وقالت:

«حسناً يا لوري. لكنني اؤكد لك بانني لن اسقط خلال المشوار!».

رد بابتسامة اكبر:

«هذا يدعو للأسف، فسأكون مسروراً اذا حملتك طول الطريق الى البيت».

سارا لعدة لحظات وسط صمت مطبق، في حين كان الضباب يذوب تدريجياً بفعل اشعة الشمس التي بدأت تطل من الشرق واعدة بيوم دافيء جميل.

قال لها وهما يقتربان من البيت:

«سآتي الى المكتبة غداً صباحاً».

«حسناً جداً».

لن تأتي على ذكر الصحف القديمة الا اذا سألها في حالة ملاحظته اختفاء الصندوق. لقد اخفت الورقتين في قعر احد ادراج طاولة الزينة، علها تجد تفسيراً بريئاً. وسيكون الامر مستحيلاً اذا ما اتلفتهما. ومع انها تعرف تماماً ان لا امل يرتجى الا انها اصرت على التمسك بالسراب.

«فانيسا؟».

«نعم!».

«قلت، هل انت على ما يرام».

«طبعاً.. طبعاً.. انا اسفة. شكراً لك يا لوري، اراك غداً».

كانا قد وصلا الى مدخل البيت، فاستدار لوري مبتعداً. قالت فانيسا باستغراب:

«ألن تدخل الى البيت؟».

«لا. كنت اريد الاطمئنان عليك فقط. فهيا اذهبي وتناولي افطاراً شهياً، وستشعرين على الفور بالتحسن».

لمست ذراعه اعراباً عن الشكر وقالت:

«انا ممتنة لك يا لوري. فشكراً جزيلا على كل شيء».

استدارت ودخلت البيت مسرعة. وما ان وطأت قدمها عتبة البيت حتى اجتاحها شعور بالحزن العميق. تمهلت للحظة كي تسيطر على احاسيسها وتحاول تناسي كل ما حدث. ولكنها لم تستطع. فهذا بيت ابيها وبيت جدها، ولا فائدة من تناسي الماضي واحداثه. ابتلعت بعض الدموع التي انحدرت على خديها واسرعت باتجاه غرفتها.

استلقت على سريرها وتركت لدموعها العنان، فاحست بها ساخنة حارة ومؤلمة... ثم دفنت وجهها في المخدة وانفجرت منتحبة.

ولم تسمع قرع الباب، كما لم تسمع الصوت الذي ناداها. وظلت على حالها حتى فتح الباب ودخل اندرو ماكلين الغرفة. نهضت وقد انعقد لسانها وملكتها الدهشة، ولم تدرك للوهلة الاولى، بسبب الدموع التي منعتها من الرؤية الواضحة، ما اذا كان هذا جدها او كال.

ثم جاء صوت جدها:

«ماذا بك يا ابنتي العزيزة؟».

لم تحر فانيسا جواباً عندما اقترب منها. ضاعت كل الكلمات من ذهنها. فاكتفت بهز رأسها بلا وعي.

وضع ذراعه على كتفها وقال:

«ما الامر؟ هل فعلنا شيئاً اساء اليك؟ بحق السماء يا فانيسا اوقفي هذا النحيب، فانا لا استطيع ان اراك باكية! ارجوك اهدأي».

وتدريجياً اثّر رجاؤه فيها. فاستطاعت من بين شهقات البكاء ان تجيب:

«انا آسفة! لا، لم يصدر عنكم ما اساء اليّ. لا استطيع ان اخبرك السبب. المسألة خاصة جداً».

جلس على المقعد قبالتها وقال:

«في هذه الحالة لن اكرر السؤال. لكن ارجوك، دعيني اساعدك اذا امكن. لم تتناولي افطارك بعد، اليس كذلك».

«كلا».

«اذن ستحضر لك السيدة بانكس بعض الطعام. واصرّ بعد ذلك على ان تنزلي الى الصالة فنتحدث قليلا حول فنجان القهوة».

نظرت اليه فانيسا وقالت:

«ولكنك يجب ان تذهب الى اشغالك هذا الصباح!».

ابتسم وقال:

«يمكنني تأجيل اعمالي هذا الاسبوع. فلن اغادر البيت واتركك على هذه الحالة دون ان اعرف السبب. كما انني اتردد في سؤال كال لأنه مشغول في الكتابة... والى جانب ذلك».

وتوقف عن الكلام فجأة.

فحثته قائلة:

«ماذا؟».

ابتسم متابعاً:

«لدي انطباع بانكما اشعلتما النيران في انفسكما».

قاطعته بتنهيدة احتجاج وانكار، فضحك قائلا:

«لا تغضبي يا عزيزتي، انا افهم الوضع تماماً. كان من الطبيعي ان تصطدما ببعضكما البعض. فكال رجل عدائي جداً، اما انت فانطباعي عنك انك امرأة ذات ارادة قوية، انا احب مثل هذه المرأة. واعتقد ان دروس الجيدو ستعطي مفعولا قوياً عندما تقطعين مرحلة منها».

وعلى الرغم من كل شيء ابتسمت فانيسا لكلام جدها:

«أنا آسفة، لم ادرك...».

قاطعها واقفاً:

«لا تهتمي ابداً. انا امتع بوجود الشباب حولي. والآن، اقترح عليك ان تغسلي وجهك بينما اطلب من السيدة بانكس اعداد فطورك... وبعد الطعام اراك في الصالون».

غادر الغرفة واغلق الباب خلفه بهدوء.

ملأت فانيسا الحوض بالماء البارد وغمست وجهها فيه مع ابقاء عينيها مفتوحتين. انها خدعة تعلمتها منذ سنوات لترطيب العينين وازالة الاحمرار منهما. وبينما هي تنشف وجهها سمعت السيدة بانكس على الباب، فدعتها الى الدخول.

الافطار الذي جاءت به السيدة بانكس يتكوّن من بعض الخبز المحمص الى جانب البيض المقلي مع الفطر ثم الزبدة والعسل... وطبعاً فنجان قهوة.

قالت فانيسا:

«شكراً جزيلا لك يا سيدة بانكس».

ردت مدبرة المنزل وهي تسعل:

«لقد طلب مني ذلك، قال انك لست على ما يرام».

«لم اكن مرتاحة. لكني سأشعر بالتحسن عندما اتناول هذا الافطار الشهي».

هزت السيدة بانكس رأسها وكأنها غير مقتنعة بما قالته فانيسا.

«حسناً سأتركك الى طعامك الآن».

وذهبت. تنهدت فانيسا وتساءلت عما اذا كانت ستخترق تحفظ هذه المرأة في يوم من الايام. لكنها لن تستطيع، لأنها غير باقية هنا طويلا خاصة بعد اكتشافها الليلة الماضية. فكل خطط الانتقام التي رسمتها ضد جدها تلاشت، حطمتها حقيقة الورقتين القديمتين، واخذت تفكر بالوقت المناسب لمغادرة البيت. صحيح ان هناك عملا كثيراً في المكتبة لكنها لا تستطيع تحمل البقاء هنا طيلة هذا الوقت محتفظة لنفسها بالسر الذي اتضح لها. كما انها لا تستطيع مصارحة جدها بالحقيقة، كيف تجرؤ على ايذائه؟ لقد استطاع تجاوز آلام السنوات الماضية، فهل يجب عليها ان تفتح له الجراح الملتئمة؟ من الافضل ان تنسحب بهدوء... ولا تعود ابدا.

بعد فترة من الزمن سيخف شوقه لحفيدته المجهولة. فكرت ان تخبره عن حقيقتها، لكنها اسقطت الفكرة فوراً، اذ كيف يمكن ان تعترف بالخدعة التي خططت لها؟ وبأنها قررت ان تخبره حقيقة شخصيتها قبل ان تخرج من حياته مرة اخرى والى الابد؟ اما بعد ان تعرفت اليه فلن تتمكن من اخباره. ليس الآن، فقد فات الاوان.. فات الاوان نهائياً.

لوري يستطيع ان ينجز العمل في المكتبة. ولم لا؟ فهو يعمل بنشاط وقادر على متابعة المهمة. بالاضافة الى ذلك يحب الكتب، خاصة الكتب القديمة، مثله مثل صاحب البيت.

جلست الى الطاولة بعد ان رفعت عنها الكتب والجرائد، وبدأت تقلب في ذهنها طرق اقناع لوري بمواصلة العمل بعد ان ترحل. انه آت الى المكتبة يوم الاثنين، ورغبته في العمل معها يومياً واضحة كما انها مقبولة من جميع المعنيين. وهذا سيكون ترتيباً معقولا ولا يسبب اية ازمات. والمهم في النهاية ان يتم ترتيب وفهرسة الكتب.

وبدأت فانيسا تشعر ببعض التحسّن وهي تتناول طعامها. هذا التحسن الخفيف يكفي الآن على الأقل.

لكن مشاعرها عادت اليها في وقت لاحق من النهار عندما نزلت الى غرفة الرياضة. شاركها اندرو ماكلين الغداء في حين كان كال خارج البيت. وقد حاول جدها كما فعل طول النهار أن يسليها ويرفه عنها. ابلغها

عن بعض ارتباطاته واشغاله... ورغم كل شيء بدأت تحس باعجاب متزايد تجاهه. وجدت انه شغوف بعمله، وله مصالح متعددة منتشرة من ابردين الى لندن، تدفعه الى التنقل كثيراً بين بريطانيا واوروبا. وبعيداً عن شؤون العمل اكتشفت حساسية مرهفة في طباعه. ومع ان والدها وصف لها جدها بانه قاسي القلب، الا ان الحقيقة [illegible] مختلفة.

ذهبت فانيسا الى غرفة الرياضة واحاسيس متضاربة تختلج في نفسها، وتمنت لو تجد كال غرين قبل ان يرتدي بزة الجيدو لتطلب منه ان لا يزعج نفسه بذلك. والواقع انها لا تريد ان تمضي وقتاً طويلا معه، فعيناه الحادتان قادرتان على اختراق افكارها والوقوف على مشاعرها... وهذا ما لا ترغب به الآن.

الصمت يخيّم على غرفة الرياضة، عبرت فانيسا باتجاه غرف تغيير الملابس وهي تنادي: «كال!» وادركت بعد فوات الاوان انها نادته باسمه الاول، فعضت شفتها السفلى ندماً. ومع ذلك ليس هناك مجال آخر، فمناداته باسم سيد غرين ستثير سخريته دون شك.

«ساكون معك خلال دقيقة».

اذن هو في الداخل. بعد لحظة خرج اليها وعلى وجهه علامة استفهام. فانيسا تعرف ان احداث الصباح تركت آثارها على وجهها بحيث لا يمكن للماكياج ان يخفيها.

قالت وهي تجهد دون جدوى لاخفاء مشاعرها:

«كنت اتساءل اذا كنت هنا، فالمكان كان صامتاً تماماً».

نظر اليها باندهاش، فخشيت ان يكون جدها قد اخبره عن دموعها ونحيبها هذا الصباح، لم تكن متأكدة من ذلك، لكنها تمنت ان لا يكون جدها قد فعل.

اجابها بهدوء:

«انا هنا، فهل انت مستعدة؟».

ترددت لحظة قبل ان تقول:

«اجل، لن أتأخر في تغيير الملابس كثيراً».

تجاوزته ودخلت الى الغرفة. ماذا بعد؟ لم يكن لديها خيار. عليها ان تستمر بالرغم من شعورها بالضعف والاعياء.

بعد دقائق كانا في مواجهة بعضهما البعض فوق فرشة الجيدو. وسرعان ما ارتاحت فانيسا بفعل حركات التحمية التي اداها معاً، بالاضافة الى انه لم يثر اية تساؤلات.

طلب منها ان تكرر السقطة الدفاعية التي تعلمتها امس عدة مرات. واستغربت كيف انها استطاعت تنفيذها دون صعوبة تذكر، بحيث ان كال نفسه علق على ذلك فيما بعد قائلا:

«هل تعرفين ان حركتك طبيعية؟».

التفتت اليه بسرعة متوقعة ان تجد ظل السخرية على سمر ملكنها وجدت ابتسامة عذبة، وتابع يقول:

«انني اعني ما اقول، فانت طرية العود ومشوقة القوام».

ردت بابتسامة عادية:

«شكراً لك».

في كل حال، انها أيام قليلة وتتخلص نهائياً من تساؤلاته المحرجة المستمرة، وكذلك من خوفها عندما يكون موجوداً.

وفجأة سألها:

«هل انت على ما يرام؟».

صدمها السؤال، فقالت متلعثمة:

«لماذا، انا.. انني بخير، لكن لماذا تسأل؟».

«تبدين شاحبة، ويجب ان لا تواصلي التدريب اذا كنت متعبة او منزعجة من شيء ما».

ثم سألها دون مقدمات:

«هل ازعجك لوري؟».

رفعت فانيسا رأسها باتجاهه دون ان تفهم ما الذي قصده بالسؤال:

«لوري؟ انا لا افهم ما تقول؟».

«لقد ذهبت هذا الصباح لمقابلته.. وعندما عدت كنت في حالة يرثى لها».

هزت رأسها وقد غامت الدنيا عن نظرها:

«ولا ابداً لم يكن هو. كان...».

ثم توقفت ونظرت اليه قائلة:

«ارجوك، لا اريد الخوض في هذا الموضوع».

ودون ان تشعر تراجعت عدة خطوات عن كال الذي لاحظ الامر فوراً.

سألها بقسوة:

«لا تقولي انني اخيفك؟».

«لا.. فقط عندما...».

توقفت مرة اخرى وقد تسللت مشاعر الضيق مرة اخرى الى صدرها فكادت ان تخمد انفاسها. قالت:

«لا. ارجوك دعنا نواصل الدرس».

قال:

«لا استطيع تدريبك وانت في هذه الحالة، ليس وانت خائفة مني بشكل واضح».

انفجرت في وجهه صائحة:

«لست خائفة منك. ليس عندما تدربني، فانت رائع عندها. لكن عندما تبدأ بطرح اسئلتك فاني... فاني لا اريد...».

واختفى صوتها في حنجرتها. لم يعد هناك مجال، فهو لن يتركها الآن. ليس قبل ان تخبره الحقيقة كلها، او الاصح قبل ان يجبرها على الاعتراف بالحقيقة. لكن ابداً... ابداً.. حدقت فيه بقوة ثم تراجعت مرعوبة. واستدارت راكضة الى غرفة تغيير الملابس. وقبل ان تغلق الباب وراءها كان هو هناك ليمنع اختفاءها.

قال:

«بحق السماء ايتها الفتاة، ما الأمر؟».

«اذهب عني. اريد ان اغادر المكان فوراً» ثم همست «ارجوك دعني».

«ليس قبل ان تخبريني سبب خوفك. انا لا استطيع ان اتركك على هذه الحال».

«لا اريد ان اتحدث اليك. اذهب عني».

وحاولت يائسة أن تبعده عن الباب، فكانت كمن يناطح جداراً. لم يتحرك قيد أنملة، لكنه وضع ذراعه حولها كي يسندها.

«لن اذهب. والآن اخبريني ما القصة. لقد امضيت النهار كله في البكاء والنحيب، اليس كذلك؟».

لم تجبه. حدقت في عينيه مباشرة، لكنها اضطرت الى تحويل نظرها بفعل تأثير نظراته الحادة. الافضل ان لا تنظر اليه، وهو بالتالي لن يمسكها الى ما لا نهاية. ليست مضطرة للكلام. انه لا يستطيع اجبارها على ذلك. لكن

التوتر اخذ يتزايد خاصة انهما كانا ملتصقين في ذلك المدخل الضيق، فحاولت الافلات من قبضته.

طالبها آمراً:

«ألم تمضي نهارك بالبكاء؟ هيا اخبريني».

«اجل.. اجل.. لقد بكيت طول النهار» ثم ارتدت اليه قائلة «والآن ما الذي ستفعله حول ذلك؟ ماذا يعنيك الأمر في اي حال؟ لا شيء. انت مجرد انسان فضولي.. فدعني اذهب فوراً. لا يحق لك ان تمسكني رغماً عن ارادتي.. انني اكرهك... اكرهك».

«لا. انت لا تكرهينني. وانا فضولي جداً لان بكاءك يتعلق بسبب وجودك في هذا البيت، اليس كذلك؟».

كيف عرف هذا الامر؟ لم تستطع ان تخفي دهشتها لانه لامس الحقيقة المجردة، وفي اية لحظة الآن يمكن ان... استجمعت اطراف شجاعتها المتناثرة وحررت نفسها من قبضته، ثم استدارت وحملت حذاءها وملابسها العادية قائلة:

«الآن سأغيّر ملابسي، هل تسمعني؟ الآن!».

سألها بنعومة:

«ما هو اسمك الحقيقي؟».

«فانيسا كولينز. سبق أن قلت لك ذلك».

كان الجواب سريعاً، ولكن ليس بما فيه الكفاية.

«.. وسميث ايضاً، أتذكرين انك اخبرتني ذلك؟ لكني لا اصدقك!».

«لا يهمني اذا صدقت او لم تصدق. فاذهب الى الجحيم. لا اريدك ان تعلمني شيئاً. انت حيوان ضخم فقط، وانا اكرهك».

خيمت ثوان من الصمت المتوتر على الاثنين اللذين وقفا في مواجهة بعضهما البعض دون ان يتفوه اي منهما بكلمة. وفجأة استدار كال خارجاً واغلق الباب خلفه، اضطرت فانيسا التي اصبحت داخل الغرفة وحدها الى الجلوس لان قدميها ما عادتا تحملانها. من الواضح انه لم يستسلم بعد. ولذلك عليها مغادرة دينستون هاوس باسرع ما يمكن. فلو طالت مدة بقائها في البيت، فان كال سيجد طريقة او اخرى لاكتشاف سرها الدفين.

٧ - حان موعد الرحيل

من الواضح الآن ان ما تخفيه في نفسها سيثقل عليها يوماً بعد يوم. فعندما دخلت الى المكتبة في الصباح التالي لاستئناف عملها، عاودها الشعور بالذنب. لعل التواقيع المزورة جربت هنا ساعة بعد ساعة، وفي لحظة عاجلة دس ابوها الأوراق بين الصحف لأن احداً دخل عليه الغرفة فجأة... ثم نسيها. وفجأة عادت الى ذاكرتها اشياء قالها جدها وتؤكد ظنونها. تذكرت كيف احتقن وجهه باحاسيس مختلفة عندما جاء ذكر الصحف. لربما عاد الى الماضي حين اكتشف الحقيقة.

ارتدت الرداء الواقي وبدأت في اعداد مجموعة من الكتب تمهيداً لفهرستها. كان قلبها مثقلاً بالهموم والاحزان. وبالأضافة الى ذلك هناك مهمة خاصة مع لوري عندما يأتي الى المكتبة.

حانت فرصتها عندما كانا يحتسيان القهوة عند الساعة الحادية عشرة. كان قد وضع كتاباً قديماً جداً على الطاولة وتنهد بحسرة، فسألته فوراً:

«انت تحب هذه الكتب القديمة، اليس كذلك؟».

نظر اليها وتعبير من الدهشة يملأ وجهه:

«اعتقد ذلك. لكنني لم افكر فيها من قبل. لماذا تسألين عن الموضوع؟».

«فقط استغربت كيف انك لم تتقدم للعمل في المكتبة عندما عرفت ان السيد ماكلين يبحث عن شخص لذلك!».

«انا؟».

هز رأسه بالنفي وقال:

«لم افكر في الأمر ابداً. بالأضافة الى انني اعمل في الحدائق. على كلٍّ، عمل المكتبة ليس من اختصاص الرجال».

قاومت فانيسا ضحكة كادت ان تفلت منها عندما قال الجملة الأخيرة.. عليها ان تكون حذرة تماماً الآن.

«بالطبع من اختصاص الرجال». وتابعت بسرعة «صدقني، هذا العمل يتطلب الذكاء الحاد والوعي العميق والعناية ايضاً. انني اعرف كثيرين من الرجال في هذه المهنة. وانت بارع فيها جداً».

اجابها وكأنه يفكر في الموضوع:

«هل هذا صحيح؟ كنت اقصد مساعدتك فقط، ولم افكر...».

«ما كنت لاستطيع العمل دون مساعدتك».

لم تكن كاذبة عندما قالت هذه الجملة. والآن انت المرحلة الحرجة.

«لنفترض يا لوري - مجرد افتراض - انني لم استطع انهاء العمل لسبب من الأسباب، فهل يمكنك مواصلته؟».

وضع فنجان القهوة على الطاولة بهدوء ونظر اليها بحدة وغضب.

«حسناً، هيا اخبريني الحقيقة!».

«لا شيء.. لا شيء».

قاطعها بسرعة:

«دعك من هذه الادعاءات».

هذه اول مرة يخاطبها فيها بهذا الشكل، وقد صدمها ذلك:

«انني متأكد من ان الملعون كال غرين هو المسؤول. اخبريني ماذا فعل؟».

شعرت بالارتياح لأن تفكيره ذهب في هذا الاتجاه.

غريب كيف تجري الأمور. في البدء اتهم كال لوري، والآن لوري يتهم كال.

«كلا يا لوري. ليس الأمر كما تظن. فأنا...».

«اسمعي جيداً، كنت امس على حافة الانفجار باكية. وانا لست غبياً بحيث لا ادرك الحقائق».

«لم اقصد ذلك ابداً».

لامست ذراعه بيدها وقالت:

«لقد تلقيت انباء سيئة عن... عن قريب لي، وهذا ما ازعجني. اؤكد لك ان الأمر لا يتعلق به. كل ما في الأمر انني لست متأكدة من استمراري هنا طويلاً ولا اريد ان اترك.. السيد ماكلين...» وكادت كلمة جدي ان تفلت منها، لكنها استدركت متابعة: «في مشاكل عديدة. هذا كل ما في الأمر».

حدق لوري بيدها المرتاحة على ذراعه ثم غطاها بيده الأخرى. قال بنعومة:

«من الصعب علي ان ارفض لك طلباً. ولكني لا اريدك ان ترحلي وانت تعرفين ذلك تماماً».

سكت قليلاً ثم اضاف بابتسامة هادئة.

«هل تبقين هنا اذا رفضت ان اقوم بالعمل؟».

هزت راسها قائلة:

«لا استطيع. سأبقى حوالى اسبوع تقريباً، وبعده سارحل. ارجوك يا لوري، ما ذكرته لك الآن اريده ان يبقى معك سراً. واعتقد انني استطيع الثقة بك، اليس كذلك؟».

قال لها مؤكداً:

«اعدك بأنني لن اخبر احداً. لكنني سأحاول اقناعك بالعدول عن الفكرة».

ابتسمت له قائلة:

«شكراً لك. اشعر الآن بتحسن كبير. والآن، اليس من الأفضل ان تشرب قهوتك قبل ان تبرد؟».

وعندما استدارت مبتعدة عنه عادت اليها الهموم دفعة واحدة. كان عليها ان لا تأتي ابداً. فالسيد مورتون كان محقاً في تحذيراته من الخدع والحيل والأكاذيب. لو انها استمعت اليه لنجت من كل هذه المأساة.

عملت فانيسا خلال اليومين التاليين بجد ونشاط في محاولة لانجاز القسم الأكبر من العمل قبل ان يحين موعد ابلاغ جدها بأنها راحلة. كل وجبة طعام معه تحولت الى عذاب شديد، زاد فيه كال غرين الذي اخذ يعاملها بتأدب جاف وكأنه يهينها. كان يراقبها وينتظر حتى تقدم على خطوة خاطئة كي يهاجمها، فشعرت بأعصابها تكاد تنفجر. وفي احد الأيام كانت

لوحدها في المكتبة عندما دخل كال. وعلى الفور استنفرت قواها وجلست تنتظر ما يمكن ان يحمله لها هذه المرة.

كان هادئاً ولا مبالياً. قال لها:

«آسف لازعاجك، لقد جئت آخذ أحد الكتب».

وسار الى زاوية الكتب الحديثة التي ليست من اختصاص فانيسا. راقبته وهي تتمنى ان ينتهي بسرعة ويغادرها كي تعود الى عملها. وصل الى الرف المقصود وسحب احد الكتب بعد ان بحث في المجموعة كلها. سمعت فانيسا تنهيدة ارتياح منه عندما عثر على الكتاب. وفجأة التفت اليها وقال بنبرة هادئة مؤدبة:

«يجب ان تخبريني كي انزل مجموعة الجرائد من غرفتك عندما تنتهين منها».

وحاهدت فانيسا كي تخفي اثار الصدمة التي اثارها فيها ذكر مجموعة الصحف. فمنذ ان وجدت الورقتين لم تعد قادرة على لمس اي صحيفة بل اعادت المجموعة الى الصندوق ورمتها في احدى الزوايا بعد ان غطتها بمجلات نسائية حديثة.

«لم... لم انظر اليها بعد بسبب ضيق الوقت».

خفق قلبها بشدة بحيث شعرت به وكأنه يريد الخروج من صدرها. ترى هل اثار موضوع الصحف عامداً؟ هل عرف القصة؟ ثم تابعت:

«يمكنك ان تنزلها ساعة تشاء، فسأنظر اليها في وقت لاحق بعد ان انتهي من العمل هنا».

واشارت بيدها الى مجموعات الكتب المصفوفة خلفها.

همهم صامتاً ثم استدار:

«سأذهب واحضرها الآن».

تردد امام الباب قليلاً وقال:

«آسف، الست قادمة معي؟».

«بلى».

وضعت فانيسا البطاقة من يدها واتجهت نحو الباب. عضت شفتها السفلى وهي تفكر، لقد احست توبيخاً مقصوداً في كل كلمة او حركة اقدم عليها، كما احست شكاً عميقاً وقلقاً مرعباً ايضاً. فتح لها الباب وافسح

المجال كي تمر، ثم سار معها باتجاه السلالم. قلبها ما زال يخفق بسرعة، لكن ليس بعامل الخوف بل لأنه يسير الى جانبها. قطعا الصالون والسلالم والممرات بصمت مطبق، لم ترد ان تحطمه لئلا يبدأ بطرح اسئلته الاستفزازية المعتادة.

وصلا الى باب غرفتها، فانتظر كال حتى فتحت فانيسا الباب ودخل خلفها:

«هناك، في الصندوق اسفل النافذة. لقد وضعت بعض المجلات فوقها. لحظة من فضلك».

رفعت المجلات الخاصة عن الصندوق وراقبته وهو يحملها بسهولة. ثم التقت عيناه عينيها وقالت بنعومة:

«هل المجموعة كلها هنا؟».

«اجل، كلها».

وادركت فجأة ان الورقتين اللتين سببتا لها كل المتاعب ناقصتان. اغمضت عينيها للحظات وكأنها تعتصر الألم الذي انتابها. آه لو انها لم تعثر عليهما. فتحت عينيها لتجد كال يحدق بها وكأنه عرف كل شيء. احست بألم حاد يطعنها في صدرها ويقطع انفاسها. لا يمكن ان تحتمل الأمر اكثر، ستجن اذا لم تهرب من هذا الرجل. استدارت بسرعة واتجهت نحو الباب غير مبالية اذا كان سيلحق بها ام لا، فهي لا تستطيع ان تبقى معه في الغرفة نفسها. اغلقت الباب خلفه بهدوء، وانتظرت حتى ابتعد قليلاً ثم لحقت به. سارت ببطء كي تبقى على مسافة بينهما. وجاهدت حتى لا يبدو الأمر متعمداً، وفي الوقت نفسه حتى لا تسير الى جانبه.

وصل الى المكتبة قبلها بوقت طويل، بينما تباطأت هي قليلاً في القاعة الرئيسية.

«لقد اعدت الصندوق الى المكان الذي كان فيه».

«شكراً لك».

اغلقت الباب خلفه بسرعة. لفت نظرها الفراغ الذي تركه عندما سحب الكتاب قبل قليل، وقبل ان تتوجه الى رف الكتب القت نظرة خاطفة على الباب كي تتأكد من انه لن يعود. مجموعة الكتب على الرف كانت متشابهة في اغلفتها وطباعتها. حملت الكتاب المجاور لذلك الذي

اخذه فوجدت انه يتعلق بالسياحة والأسفار. عادت الى ذهنها على الفور حقيقة ان كال يكتب كتاباً عن الرحلات، لربما احتاج الى مرجع لذلك.

اسم المؤلف هو كالوم كيل. ولاحظت فانيسا ان الأسم الأول للمؤلف هو نفسه اسم كال الكامل. قلبت الغلاف الأخير لتنظر الى صورة المؤلف فوجدت رجلا كث اللحية اسودها. ثم امعنت النظر اكثر. وكم كانت دهشتها كبيرة وعميقة عندما تأكدت ان الرجل ليس الا كال نفسه.

اذن كال غرين هو نفسه كالوم كيل الكاتب والرحالة والاذاعي المعروف. حدقت فيه وهما الى المائدة وتساءلت في نفسها: كيف لم تعرف شخصيته من قبل؟ كانت قد قرأت له كتابين واستمتعت بهما، خاصة انه يتمتع بتلقائية صافية في اسلوبه بحيث يشعر الانسان الذي يمضي ساعات في القراءة بانه مسافر معه فعلاً، في الصحارى، ومع الرعيان في الجبال. لم تكن تتصور هذا الأمر. هذا الرجل هو كالوم كيل. من السخرية ان يتهمها باستعمال اسم مستعار بينما هو يختبىء خلف شخصية اخرى. هناك اختلاف بالطبع، فاسمه المستعار كان لأغراض الكتابة. ولعل هذا هو السبب الذي جعله حساساً تجاه اسماء الآخرين. مدت فانيسا يدها لتتناول قطعة من الحلوى وهي تتساءل عما اذا كان بامكانها الهرب. بدأت تحس بأنها مقيدة في هذا البيت. لذلك قررت الذهاب في نزهة قصيرة، خاصة ان الأمسية دافئة ومقمرة ومنعشة.. وهي تحتاج في جميع الأحوال الى مجال لتقليب امورها.

وبينما هم يغادرون غرفة الطعام سألت جدها قائلة:

«ارغب في القيام بنزهة قصيرة حتى الباب الخارجي، فهل هناك مانع؟».

«بالطبع لا. اذهبي حيث ترغبين».

«شكراً لك. انا بحاجة الى بعض الحركة، والأمر مناسب في هذه الليلة. سوف اصعد لاحضار معطفي الربيعي».

ولم تنتبه، عندما استدارت خارجة، الى النظرة التي وجهها جدها الى كال.

سارت نزولاً باتجاه الباب وهي تستنشق بعمق النسيم المسائي المنعش. قسم من الممر كان مظللاً باغصان الشجر، اما القسم الثاني فقد زينته

الزهور المنوعة. ما حدث لها كان الأسوأ، ومن غير المتوقع ان تقع اشياء اكثر سوءاً. لقد بدأت طاقتها تخفت تدريجياً وزاد توترها العصبي، كما تلاشت شهيتها حتى للاطباق اللذيذة التي تعدها السيدة بانكس.

الآن، وقد اصبحت بعيدة عن البيت، يمكنها ان تفكر بهدوء وموضوعية. ففي الداخل كانت الضغوط تزيدها توتراً، خاصة بوجود كال وجدها الذي تبين لها يوماً بعد يوم انه ليس الرجل القاسي الذي وصفه لها ابوها. صحيح انها لاحظت عنده نزعة الى القسوة في بعض الأحيان، لكنه اجمالاً الرجل الحنون والمحب واللطيف. لقد اهتم بها يوم الأحد بحيث ظل مع «موظفته» يروي لها القصص الطريفة عن اسفاره واعماله ويرفه عنها على حساب اعماله الخاصة. هذا الجانب من شخصيته بالاضافة الى شيء عمدت دائماً الى تناسيه وطمسه ادبا الى تغيير نظرتها.

لقد كان ابوها ضعيفاً وغبياً.. والآن محتالاً ايضاً.

وصلت الى الباب الخارجي وتوقفت عنده، ثم اطلقت نظرها في الطريق المتعرج الممتد كشريط رمادي يلتف حول التلال والوديان. وعلى تلة بعيدة، بعيدة... التمعت مساحات من الثلج الناصع. وركزت فانيسا عينيها على هذه المساحات دون ان تراها بالفعل... واخذت قرارها النهائي. يجب الا تكتفي بالهرب. عليها قبل ذلك ان تكتب لجدها رسالة تخبره فيها عن الخدعة الخبيثة التي خططت لها انطلاقاً من فكرة الانتقام الخاطئة. انها مدينة له بهذا الايضاح. وسوف تنهي رسالتها بطلب المغفرة منه دون امل بالحصول عليها. اليست هي ابنة ابيها؟ او لم يخدع ابوها اباه ايضاً؟ فاندرو ماكلين لا يمكن ان يقبل حفيدة تسير على المنهج المخادع.

حبست دمعات حارة في عينيها. لا بكاء بعد اليوم، فقد انتحبت ما فيه الكفاية. كال غرين سيشعر بالارتياح لأنه كان محقاً حول شخصيتها. ورغم كل شيء تساءلت فانيسا عما اذا كان سيرتاح فعلاً. كان يبدو على كال الاعجاب الشديد باندرو ماكلين. وفي حال اقدامه على الزواج من هيثر واقدام اندرو على الزواج من آن ماكري، فانهما سيصبحان اقرباء. شدت فانيسا قبضتها على خشب الباب وهي تستعيد منظر الأربعة في غرفة الطعام. كانوا يتحدثون ويضحكون ويتسامرون بينما هي الغريبة بينهم. استدارت عائدة الى البيت. لعل هيثر بدأت الآن اخذ دروس في الجيدو،

ولكن فانيسا لم تتصور انها ستسمح لشعرها المصفف بعناية ان تبعثره الحركات والسقطات. وكيف يمكن ان ترتدي بزة التدريب على حساب الفساتين الأنيقة الباذخة؟ تمايلت على شفتي فانيسا ظلال ابتسامة وهي تتصور المشهد، لكن المؤسف انها لن تكون هناك لتشاهد بنفسها... فتلاشت البسمة بسرعة.

اسرعت عائدة الى البيت... فبعد ان حزمت امرها حول الرسالة عليها ان تكتبها باسرع وقت ممكن.

كانت الأضواء تشعشع في معظم غرف المنزل. توقفت فانيسا للحظات تتأمل هذا البيت الكبير الهادىء. لا غرابة في ان كال قصده لانجاز كتابه، فأية اجواء افضل يمكن ان يتوقعها المؤلف؟ ولا غرابة ايضاً في ان جدها يعود من اسفاره دائماً - كما اخبرها يوم الأحد - وشعور بالراحة والسعادة يملأه لمجرد رؤية البيت. انها تدرك الآن ما قصده من خلال الجو العابق بالسكينة الذي يحيط بالبيت من جميع جوانبه. عضت شفتها السفلى بشدة. فالقدر يمكن ان يكون قاسياً في بعض الأحيان. لقد اعطاها لمحة مما كان سيكون. والآن عليها ان ترحل بعيداً ... ولا بد من ذلك سريعاً. واصلت سيرها الى المدخل الرئيسي، صعدت الدرجات الحجرية وفتحت الباب على مصراعيه... فسمعت الرجلين وهما يضحكان لشيء ما في الصالون.

ركضت فانيسا الى غرفتها وتناولت قلماً ودفتر الرسائل والمغلفات واستعدت للكتابة.

جاء لوري يوم الخميس كعادته بعد التاسعة بقليل. نظر الى فانيسا فور دخوله المكتبة وقال:

«الم تغيري رأيك بعد؟».

هزت رأسها بالنفي:

«كلا يا لوري، انا آسفة، هل لك ان تقوم بالتسجيل بدلاً مني اليوم؟».

ابتسم بهدوء:

«يظهر انك تريدين تدريبي؟».

«انا آسفة. لم اقصد ان يبدو الأمر كذلك. آه يا لوري انني حائرة

وضائعة».

وضعت يدها على خده، فتقدم منها قائلاً:

«ارجوك يا فانيسا، ارجوك لا تحزني. الا يمكن ان اقوم بأي شيء... اي شيء لمساعدتك؟».

«لا، لا يمكنك عمل شيء».

فكرت في الرسالة المكتوبة والمختومة في درج طاولتها، والتي تنتظر التسليم عندما يحين الوقت.

رفع لوري ذقنها باطراف اصابعه بحركة شبيهة بحركات كال وقال:

«لا اظنك ستقدمين على البكاء الآن؟».

لاحظت تعابير وجهه القلقة فقالت على الفور:

«لا، ابداً».

هي تعرف انها غير قادرة على البكاء حتى لو ارادت.

«الحمد لله».

مرر يده العريضة خلال شعره الكث وهو يتنهد بارتياح واضح:

«ما رأيك لو احضرت لك فنجاناً من القهوة او الشاي؟».

«يا الهي. السيدة بانكس سوف تقيم الأرض ولا تقعدها!».

«اعرف ذلك. لكنني مستعد لاغضابها ومواجهتها اذا رغبت بفنجان».

«لا اريد ذلك. فقد تناولت فطوري قبل قليل».

كانت الوجبة مرعبة فعلاً، اذ تواجدت هي وكال وحدهما حول المائدة. هو ببرودته وهدوئه ونظراته الحادة، وهي بافكارها وشرودها... والنتيجة انها لم تأكل سوى قطعة صغيرة من الخبز. فقد كانت متوترة الأعصاب بحيث انه لو اثار اي موضوع لتركت المكان على الفور. لكنه لم يفعل، لعله لاحظ مزاجها المتعكر ورأى المرارة التي تملأها والتي لا يمكن ان تنتهي الا بعدما تركب سيارتها وتغادر المكان دون عودة.

«حسناً. اذا اردت فنجاناً، فقط قولي لي. فمن اجلك انا على استعداد لمقاتلة الأسد... اقصد اللبوة».

«شكراً لك يا لوري، فأنت لطيف جداً».

استدار بحياء قائلاً:

«من الأفضل ان نبدأ العمل. فماذا سنفعل الآن؟».

«سأعيد ترتيب هذه الكتب حسب التسلسل».

واشارت باصبعها الى مجموعة من الكتب التي سبق لها ان سجلتها. بدأ العمل الذي يقومان به يعطي ثماره. وكانت تشعر بالارتياح وهي ترى الكتب مرتبة في اماكنها. فخلال اسابيع سيكون كل شيء على اتم وجه في المكتبة... لكنها لن تكون هنا لترى اكتمال ما قد بدأت به. غاص قلبها في صدرها عندما خطرت لها هذه الفكرة: لوري سيكون هنا اما انا فلا.

اسرعت الى العمل في محاولة لطرد هذه الأفكار المؤلمة. وهكذا مضى الصباح متثاقلاً بدون ان يكون لهذا اليوم اي معنى. فجدها وكال سيتناولان العشاء في الخارج، اما هي فستحضر لها السيدة بانكس الطعام الى غرفتها... وهذا الترتيب يناسبها تماماً في هذه الظروف. لو انها تستطيع ان تأكل دائماً في غرفتها، حتى لو وجدت السيدة بانكس ذلك متعباً وغريباً. وضعت الكتب التي كانت تحملها في مكانها والتفتت الى لوري الغارق في عمله بجد ونشاط. احست ببعض الخزاء لأنه استطاع ان يستوعب العمل ويقوم به على افضل وجه. ومن الأكيد ان جدها كان سيطلب منه ترتيب المكتبة لو انه عرف سلفاً قدرته على ذلك.

كان بعد الظهر هادئاً بغياب لوري. انهت فانيسا عملها بحدود الخامسة ثم القت نظرة اخيرة على المكتبة قبل ان تتوجه الى غرفتها. تساءلت كيف ستكون العلاقة بين كال ولوري عندما سنرحل هي. ربما احسا بضرورة ان لا يتدخلا في شؤون بعضهما البعض. لاحظت مرة اخرى الرف الذي سحب منه كال الكتاب قبل مدة، هناك الكثير من الكتب للقراءة. لكنها وجدت نفسها راغبة في قراءة احد كتبه على ضوء اكتشافها لحقيقته وشخصيته. خرجت من المكتبة واغلقت الباب خلفها بهدوء ثم اسرعت الى غرفتها. كانت غرفة كال تقع في الجهة الاخرى من الممر، ومنها سمعت صوت ضربات الآلة الكاتبة، وهو الصوت الذي تردد كثيراً خلال الأيام الماضية. ثم تجاوزت الممر ودلفت الى غرفتها.

عندما بدأت نشرة اخبار الساعة السادسة مساء على شاشة التلفاز، سمعت الرجلين يغادران البيت. وبهدوء تام توجهت الى النافذة لترى جدها يدخل في سيارة كال الجاكوار، ثم اقلعا معاً باتجاه الطريق الرئيسي. بعد ساعة ستحضر لها السيدة بانكس عشاءها المكون من وجبة خفيفة،

خاصة ان الرجلين غائبان. وعلى كل فإن شهيتها للأكل خفت كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية. انحنت على النافذة تراقب السهول الممتدة حتى الأفق وقد غرق قلبها في لجة الحزن العميق. عاد اليها وجه السيد مورتون الرافض لخططها فتخيلت نفسها امامه تعترف له بفشلها، فهي مدينة له بذلك على الأقل. بعد ذلك ستترك شقتها الخاصة في لندن، بل ربما تغادر لندن كلها، الى خارج البلاد... فهي لم تعد تحتمل حياة القلق بعد الذي جرى لها هنا. احست ببرودة اطار النافذة تلسع رأسها فتساءلت عما اذا كانت ستصاب بالرشح او الانفلونزا. كان جسدها متعباً، ووجهها ملتهباً بالحرارة الشديدة مع ان موجة من البرودة كانت تسري في اوصالها.

ابتعدت فانيسا عن النافذة، فوقعت عيناها على كتاب كال، تناولته واقفلت جهاز التلفاز ثم القت بنفسها على المقعد الوثير. اعجبتها المقدمة التي تحدث فيها عن كيفية تحويله سيارة لاندروفر الى بيت على عجلات، واستعمالها في رحلة طويلة الى مجاهل افريقيا. اعجبتها لأن الكتاب ليس مجرد رقم على احد الرفوف، بل هو من تأليف الرجل الذي انقذها من اثنين من الرعاع... والذي يشك بها ولا يحبها. توقفت فانيسا فجأة عن القراءة وقلبت الكتاب لتعيد التأمل في الصورة المنشورة على الغلاف الأخير. انه يبدو مختلفاً في اللحية، ومع انها لم تعجب به الا انها اعترفت بأن اللحية تناسبه تماماً. احست بعينيه، حتى في الصورة، وهما ترمقانها وتسخران منها بغموض شديد. تنهدت بعمق واعادت فتح الكتاب على الصفحة التي كانت تقرأها. ومع ذلك ظل خيال المؤلف يهاجمها بالحاح رغم انها بذلت جهداً للتركيز على الموضوع. لقد لمسها صاحب الكتاب واحتضنها، بل وعلمها كيف تسقط بأمان... كما انه كان لطيفاً في احيان قليلة. واحست فانيسا بدفء يتدفق في كل جسدها وهي تتذكر ذراعيه القويتين وعينيه الحادتين....

اغلقت الكتاب بعنف وتوجهت مرة اخرى الى النافذة. ودون ان تدري احست باصابعها تلامس شفتيها. لقد عانقها بالقوة... انه الرجل الأول الذي يفعل ذلك بدون ان يبدو عليه التأثر. وعلى امتداد نظرها ترامت الحدائق والسهول لتقف في النهاية على اعتاب تلال رمادية اللون مكللة بالثلوج البيضاء التي لن تذوب ابداً، لأن الحرارة هناك لا يمكن ان ترتفع

لدرجة تذيب معها الثلج.

سمعت قرعاً على الباب فاستدارت لاستقبال السيدة بانكس، وارتاحت لأنها جذبتها من افكارها المتضاربة. وبعد ان تناولت الطعام بدا لها كأن الليل يتمطى الى ما لا نهاية. ولتمرير الوقت انزلت صينية الطعام الى المطبخ ثم عادت لتشاهد مسلسلاً كوميدياً يعرضه التلفاز... وظلت هكذا حتى حان موعد الاخبار. ادركت انها لن تستطيع النوم بسبب فكرها المشوش، لذلك قررت القيام بنزهة قصيرة في المساء البارد والمنعش، لعلها تتعب نفسها قليلاً فتعود الى النوم فوراً.

ارتدت فانيسا معطفاً صوفياً ثقيلاً، واطفأت جهاز التلفاز ثم غادرت المنزل. في الخارج كان الهواء بارداً ومنعشاً. سارت حول المنزل باتجاه المدخل الخلفي، ثم نهاية الممر الذي اصبح اكثر حلكة. توقعت ان تصل الى موقف سيارات البيت اذا ما اكملت سيرها بالاتجاه نفسه، وبعد دقيقة شاهدت مجموعة من البيوت المسقوفة التي كانت في يوم من الأيام اصطبلات للخيول. كانت مواقف السيارات مضاءة بنور ساطع معلق على سطح احد البيوت. وقفت تحت النور تتأمل المكان. شاهدت سيارتها خلف باب نصف مغلق، والى جانبها مكان خال حيث تقف سيارة كال عندما يكون في البيت. وتساءلت عما اذا كان الرجلان سيتأخران في العودة. هل يهمها هذا الأمر فعلاً؟ واستغربت كيف جاءها وجه هيثر الجميل وعلى ثغرها تلك الابتسامة الموجهة الى كال.

حثت فانيسا خطواتها مسرعة، وقد صممت على اكتشاف نهاية هذا الممر قبل مغادرة البيت. وكلما توغلت في الممر، كانت الاشجار تزداد كثافة، والطريق يتعرج ويضيق، والظلام يشتد حلكة. ولم تكن تسمع سوى وقع خطواتها على الحصى... وزقزقة عصفور ازعجه وجودها في ذلك الوقت.

واخيراً وصلت فانيسا الى البحيرة. كانت صغيرة المساحة وفي وسطها جزيرة موصولة الى البر بجسر خشبي جميل تزينه صخور رصفت بشكل هندسي بديع. وعادت الى ذهنها صور غامضة عن مكان معين حدثها عنه ابوها كساحة امضى فيها طفولته الجميلة. لا شك ان هذا هو المكان. البحيرة والجزيرة، ملعب خصب لمخيلة طفل غض. طفرت الدموع من

عينيها لأن الذكرى اعادت اليها كل الماضي بأحزانه وآلامه.

اقتربت من الجسر حتى وطأت عتباته الأولى. الخشب عتيق ويحتاج الى دهان جديد، لكنه ما زال صالحاً للاستعمال. جربت بقدمها قدرة الخشب على الاحتمال، فسمعت صريره في سكون الليل الدامس... ومن مكان ما حمل الصدى نعيق بوم بعيد. استدارت مبتعدة عن الجسر. لن تقدم على زيارة الجزيرة الليلة، لعلها تفعل غداً. ولكنها تدرك في قرارة ذاتها انها لن تطأها ابداً، لا اليوم ولا غداً... ولا بعد غد.

وفي مكان مطل على البحيرة عثرت فانيسا على مقعد خشبي تظلله نباتات عالية. جلست عليه لتراقب بعض الزهور التي اينعت ورودها على سطح البحيرة الساكن. ووسط السكون الطاغي انهمرت ذكرياتها بشكل ملح، ذكريات عن والدها عندما كانت اصغر سناً واكثر انطلاقاً وفرحاً... هكذا تصورت تلك المرحلة التي كانت تعتقدها افضل سني حياتها. وبعد ذلك جاءت المأساة التي دفعت فانيسا الى هذا المكان سعياً للانتقام.

لقد انتهت الرحلة تقريباً الى الفشل الذريع. وحيدة؟ صحيح ان لديها العديد من الاصدقاء من الجنسين، لكن هؤلاء كلهم لا يحلون المشكلة. فهي قد سئمت من الاستقلالية المطلقة وباتت بحاجة الى من تعتمد عليه. خيمت الوحدة على عينيها ووجهها وهي تحدق في الظلام اللامتناهي. وفي هذه الاثناء بدأت نجوم متفرقة تلمع في السماء الصافية وقد ازدادت برودة الهواء. لم تشعر فانيسا، مرة في حياتها، بالوحدة والضياع كما تشعر الآن. داهمتها موجة مفاجئة من البكاء واليأس فدفنت وجهها بين راحتيها واخذت تنتحب بصمت.

كانت على هذه الحال عندما عثر عليها كال بعد عدة دقائق. لم تره في بادىء الأمر، بل لم تر شيئاً لأن عينيها كانتا غائبتين خلف راحتيها المتماسكتين. وعندما شاهدته، رأت على وجهه تعابير جدها نفسها عندما عثر عليها وهي تنتحب في غرفتها. تهدّلت كتفاها باعياء حتى بدت وكأنها ستنهار تحت وطأة الهم والتعب، في حين وقف كال غرين قبالتها يراقبها بصمت واهتمام بدون ان يبدي وجهه اية تعابير اخرى، وكأنه يرتدي قناعاً.

واخيراً تقدم منها ولمس كتفها بلطف:

«فانيسا؟».

نظرت اليه فزعة وقالت:

«ارحل عني!».

خرجت العبارة من فمها دون ادنى تفكير، انها لا تريده الآن، بل لا تريد اي انسان في هذه اللحظات. لكنه موجود الى جانبها سواء ارادت او لم ترد.

«لن ارحل. لقد تأخر الوقت وخيم الظلام، وربما ضعت في الحدائق!».

تضيع؟ يا له من تعبير طريف! لو انه يعرف فقط كم هي ضائعة فعلاً.

«لا اريد الذهاب. انا اعرف طريق العودة وحدي. فدعني على انفراد، ارجوك».

نظرت اليه مباشرة غير مبالية بما يمكن ان يلمحه في وجهها. لا شيء يهم الآن، فقط تريد ان ترحل بعيداً... بعيداً.

«هيا بنا، فالبرودة اصبحت قاسية وقد بدأت ترتجفين».

كانت ترتجف بالفعل مع انها لم تحس بذلك. مررت راحتيها على ذراعيها فشعرت بقشعريرة البرد. وبينما هي كذلك سمعت حفيف قطعة ثياب. ثم شعرت بدفء سترته السميكة على كتفيها. مدت يدها تلامس السترة الجلدية وهي تقول:

«لكنك».

«اجل. ويمكن ان اظل الليل كله في هذا المكان مرتدياً قميصي فقط. فهلا آتيت معي؟».

وجدت فانيسا نفسها واقفة على قدميها بدون ان تدري ما اذا كان قد ساعدها على النهوض ام انها استطاعت ذلك بمفردها. سارا باتجاه البيت وقد عاد الدفء يسري في جسدها وقد شدت السترة بيديها الاثنتين.

قالت بعد لحظات من الصمت الثقيل:

«شكراً لك لأنك اعرتني السترة».

نظرت اليه وهو يسير الى جانبها في حين ظهر قميصه الأبيض واضحاً في ذلك الظلام الحالك:

«لكن هل انت متأكد...؟».

قاطعها قائلاً:

«انا لا اتأثر بالبرد».

ومد يده ملامساً يدها واضاف:

«هل تشعرين؟».

كانت يده دافئة. لم تستمر اللمسة الا لحظات قليلة، لكن فانيسا ظلت تحس بدفئها حتى بعد ان سحب يده... ثم انتقل هذا الدفء بسرعة بحيث شعرت أن جسمها كله يشتعل.

وقالت بسرعة في محاولة لاخفاء اضطرابها:

«لم اعتقد انك ستعود باكراً!».

«كلا. نحن اجمالاً لا نعود باكراً. لكن السيدة ماكري لم تكن على ما يرام لذلك...».

ثم توقف. وفكرت فانيسا بسرعة: من الأكيد ان هيثر لم تكن مسرورة لذلك.

«لم يكن النور مضاء في غرفتك، وقد ابلغتنا السيدة بانكس انها سمعتك تغادرين البيت منذ مدة طويلة».

هل صحيح انها امضت زمناً طويلاً في الخارج؟ لقد بدا لها الوقت مجرد لحظات فقط..

«لذلك فكرت ان القي نظرة لأرى ما اذا كنت قد ذهبت بسيارتك، ولما وجدت السيارة في مكانها تأكدت من انك في نزهة ليلية.. وهكذا وجدتك».

لم يكن هذا هو كال الذي تعرفه. شيء ما غير عادي موجود في تصرفاته، لكن فانيسا لم تستطع ان تحدد بأي شكل هو مختلف. لقد احست بالتغيير، وظلت حائرة حتى اوت الى فراشها فبدأت تعيد رسم الصورة بوضوح.

بعد ساعة كانت تجلس في فراشها تتناول فنجاناً من الشوكولاته الساخنة، استعادت رحلة العودة مع كال من البحيرة، وفكرت فيها بهدوء وروية. لم تكن قادرة ان تفعل ذلك عند وصولها لأن جدها كان بانتظارها قلقاً، وفور رؤيتها قال:

«ها انت قد رجعت. هيا ادخلي يا عزيزتي... هيا ادخلي»..
واحتضنها بين ذراعيه وادخلها الى الصالة. ولسوء حظ فانيسا زاد هذا التصرف الأبوي من حدة افكارها المتناقضة فيما يتعلق بالموقف من جدها كما هو في الواقع وكما رسمه لها والدها من قبل.

تمكنت من الانسحاب بعد قليل مدعية بأنها متعبة، وطلبت منهما الأذن بالانصراف، فأذنا لها. لكن تعابير كال ظلت مسيطرة عليها حتى وهي مستلقية في فراشها الآن تشرب فنجان الشوكولاته اللذيذة التي اعدتها السيدة بانكس.

انها تدرك مغزى التغيير الذي حصل، لقد كان يتصرف بطريقة مختلفة تماماً، بل انه ينظر اليها باسلوب مختلف عن تلك الطريقة الباردة التي كانت تشعرها بعدم الارتياح. كان كمن اكتشف شيئاً جديداً. لكن ما هو هذا الاكتشاف؟ وظل السؤال يحير فانيسا لفترة من الوقت. ثم جاءها الجواب ومعه الشعور بالانزعاج: لا شك انه عرف من هي في الواقع! وضعت الفنجان من يدها خوفاً من ان تسكبه على نفسها بفعل الاضطراب. «آه يا ربي» نطقت هذه العبارة بصوت عال رغماً عنها. انه يعرف. لم تكن تعلم كيفية اكتشافه للحقيقة، لكنها متأكدة من الأمر. ولهذا السبب عليها ان ترحل في اسرع فرصة، عليها ان تغادر دينستون هاوس الى الأبد.

٨ - جاء زمن الحب!

استعادت فانيسا هدوءها في صباح اليوم التالي، وتوجهت لتناول فطورها وهي على اتم الاستعداد لكل الاحتمالات. لو اراد كال ان يثير موضوع شخصيتها مجدداً لكان فعل ذلك مساء امس عندما كانت ضعيفة ومنهارة وقابلة للهزيمة. لكنه لم يفعل. هل يعني ذلك انه يخبىء المعركة الى وقت لاحق؟ لم تجد فانيسا جواباً، الشيء الأكيد انها يجب ان ترحل بسرعة. لذلك ستغادر دينستون هاوس غداً السبت، بعد ان تضع الرسالة بشكل تستطيع السيدة بانكس ان تعثر عليها فوراً.

وخلال النهار، راقبت فانيسا لوري وهو يعمل في المكتبة فهي تريد ان تتأكد من انه قادر على اتمام العمل على الوجه الأكمل قبل مغادرتها. لن تخبره بموعد رحيلها، لكن وداع الغداء هذا اليوم سيكون الوداع الأخير دون ان يدري. كان مرحاً كعادته واكثر، وكأنه اراد ان يبعد عن فكره حقيقة كونها راحلة. وعند الساعة الحادية عشرة تناولا القهوة معاً. وقد كان من الواضح ان لوري يتمتع بعمله، اذ انه مضى في حديث لا ينتهي عن الكتب ومحتوياتها وسجلاتها. ارتاحت فانيسا لهذا الجو، لأنها لن تضيف عقدة ذنب جديدة بسبب المكتبة الى العقد العديدة التي تشعر بها حالياً.

عند الساعة الواحدة نظر الى ساعته وانتصب واقفاً وهو يقول:

«حسناً سأذهب الآن، فعليّ انجاز بعض الأعمال في الحديقة. انني احب هذه الحياة: المكتبة... وانت عند الصباح، والحدائق بعد الظهر».

ابتسمت فانيسا:

«انا مسرورة لذلك. فقط استغرب كيف انك لم تكتشف قدرتك في هذا

العمل قبل الآن وتتقدم له. . . فأنت قادر عليه افضل مني».

هز رأسه قائلاً:

«مستحيل. فما كنت لأقبل العمل في المكتبة اساساً لو لم ألتقِ بك في الممر ذلك اليوم».

ابتسمت:

«شكراً لك يا لوري، ووداعاً».

وكانت تريد ان تضيف شاكرة اياه على المساعدة التي قدمها، لكنها خشيت ان يشك فيها. لذلك اكتفت بالصمت وراقبته وهو يتجه نحو الباب.

قال:

«سأراك اذن يوم الاثنين». . .

وأغلق الباب قبل ان تهمس:

«لا. . . لن تراني بعد اليوم».

انتظرت في المكتبة للحظات كي تتأكد من مغادرته البيت، ثم خرجت بدورها.

كان كال بمفرده في غرفة الطعام، فأخذت فانيسا نفساً عميقاً واتجهت الى مقعدها:

«ارجوك. لا تزعج نفسك بالوقوف».

نطقت بهذه العبارة عندما حاول الوقوف ليرحب بها. جلست وهي تنظر اليه ببرود، اذ ان شيئاً ما تغير في علاقتهما بعد احداث الليلة الماضية قرب البحيرة. كانت تتوقع ان تشعر بالخوف من الحقائق التي يعرفها. ولكن لاستغرابها الشديد لم تخف، ولم تعرف السبب في ذلك. فكرت وهي تتناول الحساء: لعل السبب يكمن في انها ستغادر المكان قريباً ولن تراه بعد ذلك ابداً. وقفت يدها بملعقة الحساء قريباً من فمها. لن تراه ابداً. . . ابداً! ثم نظرت الى اعلى وتساءلت بصمت: هذا اغرب وقت ممكن ان يكتشف الانسان انه يحب الشخص الذي اعتقد انه يكرهه.

اعادت الملعقة الى طبق الحساء، فنظر كال اليها قائلاً:

«ما الأمر؟ هل الحساء سيء؟».

«كلا، كلا. . فقط. . .».

كم سيبدو الأمر مضحكاً اذا ابلغته الحقيقة وقالت «لقد ادركت لتوي انني لا اكرهك ابداً، بل اعتقد اني احبك كثيراً». وتخيلت الضحكة المجلجلة التي سيطلقها عند سماعه كلامها. . لذلك قالت:

«لا اريد هذا الحساء!».

اما هو فقد رفع حاجبيه استغراباً.

«لكنك منذ مدة لا تأكلين اي شيء. هل انت مريضة؟».

«لا . . لست مريضة».

واضافت لنفسها بابتهال: «ارجوك دعني لوحدي. . . ارجوك دعني لوحدي» الآن فقط عرفت سر حفظها لتفاصيل وجهه الكاملة منذ اللحظة الأولى التي طالب فيها بمعرفة اسمها. لم يعد في اليد حيلة، عليها ان تعيد النظر الى ذلك الوجه ذي الملامح الداكنة، المليء الآن بالقلق. كال قلق؟ من الصعب ان تصدق، لذلك قررت مغادرة الغرفة.

وقفت فجأة:

«اريد ان اعود الى غرفتي، ارجوك ان تعذرني وتبلغ السيد ماكلين. . .».

وكادت ان تقول جدي دون وعي:

«بلغه انني متعبة قليلاً».

وخطت باتجاه الباب بدون ان يحاول كال ايقافها او حتى النطق بكلمة واحدة. وشكرت فانيسا ربها لأن كال لم يحاول منعها، فلو فعل لكانت انفجرت باكية.

انتظرت حتى سمعت جدها يدخل الى غرفة الطعام، فتسللت من غرفتها وغادرت البيت. سارت بدون هدف، فقط تريد الابتعاد عن المنزل لفترة قصيرة. اسرعت الى موقف السيارات فوجدت الباب مفتوحاً وسيارتها تنتظر.

عبثت اصابعها في حقيبة يدها حتى عثرت على مفاتيح السيارة، ثم عبرت بسرعة الى الموقف، لم يدر محرك السيارة في بادىء الأمر، الا انه زمجر اخيراً بعد محاولات عدة. انها بحاجة الى نزهة قصيرة تعيد الوضوح الى ذهنها والطمأنينة الى نفسها، هي تعرف الى اين تقصد. فالطريق يمتد متعرجاً بين التلال باتجاه ما كان في الماضي قرية صغيرة منعزلة. اما الآن

فلم يعد هناك الا جدران شبه مهدمة صارت مأوى للقطعان عندما تهب الرياح العاصفة. صحيح ان المنطقة خالية جداً الا انها تبعث الطمأنينة في النفس.

قادت سيارتها باتجاه الباب الرئيسي، فالتقت بلوري الذي لوح لها بيده. ربما من الأفضل ان تكتب له كلمة قصيرة، فهذا حق الصحبة عليها.

سار الطريق متعرجاً في ذلك المساء البارد المنعش، فانزلت فانيسا شباك سيارتها تاركة الهواء ينساب ناعماً على وجهها وشعرها. حان وقت تأمل الطبيعة لاختزان بعض جمالها للأيام الصعبة الآتية. ان قلة من الناس يقصدون هذه الناحية. الى اليسار منها تناثرت مستنقعات وبحيرات لا حصر لها، اما الى اليمين فقد كانت التلال موزعة بدون ترتيب. اعجبت فانيسا بعزلة هذه المنطقة عن العالم وتساءلت عن كيفية العيش بعيداً عن كل الناس، وسط الاشجار والنباتات والمياه والتلال التي تغطيها الثلوج في معظم اشهر السنة.

عبرت الممر باتجاه ساحة خضراء قريبة، ثم اوقفت محرك السيارة. خيم صمت شامل لم يقطعه سوى صوت المذياع... قبل ان تسكته فانيسا ايضاً، وتبدأ نزهتها على القدمين. تريد ان تفكر بالاكتشاف المفاجيء الذي داهمها بشأن مشاعرها تجاه كال. اذ حتى الموسيقى كانت تتآمر عليها، فالأغنية العاطفية التي كان يبثها المذياع انسابت بموسيقى شجية آسرة بحيث لم تستطع فانيسا الا ان تتذكر كال عندما جاءت كلماتها التالية: «لكن لماذا احبك؟ اتمنى لو استطيع الهرب من قسوتك وجفائك»... لذلك اسكتت المذياع بنزق واغلقت باب السيارة خلفها بقوة. انها مجرد صدفة. همست لنفسها تردد كلمات الأغنية «لكن لماذا احبك؟».

لم تستطع مقاومة وجه كال عندما طغى على مشاعرها وافكارها، والصورة التي عادت الى ذهنها هي صورته اللقاء الأول في المقهى حين رفع عينيه عن الصحيفة واختلس نظرة خاطفة اليها، وكذلك صورته عندما تغلب على الشابين بسهولة عجيبة، ثم نقاشهما الحاد في اكثر من مناسبة. وتذكرته لطيفاً في عنائه، قاسياً في تساؤلاته الملحة، واخيراً الاهتمام بالبالغ كما حدث اليوم. ولكن الحدث الأهم كان مساء امس عندما احست بدفء

سترته يلامس كتفيها الباردتين. كان طريق العودة الى البيت مختلفاً تماماً امس، والآن فقط ادركت لماذا. فلا شك انه عرف الحقيقة. اخذت نفساً عميقاً وجلست على اطلال حائط زراعي مهدم ثم مدت يدها الى نعجة كانت تراقبها بخوف. همست لها: «تعالي!» لكن النعجة هزت رأسها واستدارت بعيداً.

الصمت في كل مكان. ومن البعيد كانت تأتي بين الحين والآخر اصوات بعض الحيوانات. لا سيارات ولا ناس، فقط سكون هذه الأمسية الصيفية الدافئة التي كانت نقطة تحول في حياة فانيسا. فلم تكن تتصور نفسها في علاقة حب، ولم تكن تتصور انها ستنظر الى رجل ما وتحس هذا الخدر اللذيذ الذي ينشأ عن الشعور بالحب.

«يا الهي كم كنت غبية!» اطلقت هذه الصيحة بصوت عال مطمئنة الى ان احداً لم يسمعها. منذ انطلاقها من لندن الى اسكتلندا وهي تتساءل عما اذا كانت ترتكب خطأ جسيماً بمغامرتها هذه. والآن جاء الجواب بالايجاب. اذ بعد ان التقت جدها وتعرفت اليه ولو بشكل غير كامل، فإنها حصلت على صورة اشمل من تلك التي قدمها لها ابوها. نظرت فانيسا الى احد البيوت المجاورة دون ان تستطيع الرؤية، فقد كانت افكارها مع والدها الذي احبته بجنون... والذي ادركت الآن انه ارتكب اخطاء وسيئات مثل اي انسان آخر، ولربما اكثر من اي انسان آخر. واكثر ما آلمها، معرفتها بأن الانسان الذي احبته بعمق ليس كاملاً. عليها ان تتلف الورقتين الشاهدتين قبل رحيلها. وذلك من اجل ابيها وجدها على حد سواء. ثم ستبني حياة جديدة بعيداً عن آلام الماضي، والزمن كفيل بالجراح العميقة، وستجد بعد حين ان دينستون هاوس والناس الذين يعيشون فيها هم مجرد ذكرى لا تحرك في نفسها شيئاً. ربما...

وقفت فانيسا فجأة واستأنفت السير. ما تحتاج اليه الآن، ان تهيم على وجهها في الريف بدون هدف وبدون ازعاج من احد. خاضت في الحقول الخضراء الندية وهي تشعر بسعادة غامرة لاحتكاكها بالطبيعة الهادئة الجميلة، وابتعدت عن الطرقات المطروقة فلم تعد تجد الا الاشجار والصخور وبعض الأغنام التي ترعى في ذلك الريف المنعزل. ظلت تصعد في التلال حتى وصلت الى جدول مائي ينحدر عذباً رقراقاً وقد انعكست

عليه اضواء المساء الخافتة. وقفت فانيسا قليلاً واخذت ترطب يديها ووجهها بالماء البارد المنعش، ثم شربت بعض قطرات منه... وتابعت مسيرتها.

ازدادت الاشجار كثافة، ولاحت امامها بداية غابة واسعة من اشجار الصنوبر والسنديان. عما قليل ستدخل هذه الغابة الغامضة وتضيع في لا نهايتها.

دخلت بين الاشجار المتشابكة فأحست بالبرودة تشتد بحيث اخذت ترتجف، لكنها واصلت تقدمها وكأنها مسحورة بالخضرة الطاغية المحيطة بها وبصوت تكسر اغصان الصنوبر اليابسة تحت قدميها. الهواء مليء بالرطوبة الباردة، فالشمس لا تصل الى داخل الغابة بل تكتفي بملامسة رؤوس الاشجار التي تزداد تطاولاً وضخامة.

وقفت فانيسا في مكانها لحظة واطلقت نظرها الى الأعلى، حيث جذوع الاشجار تمتد وتمتد. شعرت بأن الأغصان تطبق عليها والاشياء تدور حولها بسرعة غريبة مفاجئة، فاستندت الى اقرب شجرة لتتدارك السقوط. وعرفت على الفور انها جائعة جداً فهي لم تتناول على العشاء الا عدة ملاعق من الحساء قبل ان تنظر الى كال وتكتشف انها تحبه... وبعد ذلك فقدت شهيتها.

بدا لها ان الغابة اصبحت اكثر برودة واشد ظلاماً. فقررت عدم مواصلة التقدم، لم تعد تنفعها الافكار والتحليلات، الشيء الوحيد الباقي لها هو ان ترحل بعيداً... بعيداً... عندما تعود الى دينستون هاوس سوف تجهز حقيبتها للمغادرة. سمعت صوتاً خافتاً يشبه حفيف اوراق الشجر اليابسة عندما تدوسها الاقدام، وعندما خرجت من الغابة اكتشفت ان الصوت ناتج عن المطر الذي بدأ ينهمر خفيفاً. لم تتزعج من البلل، بل رفعت وجهها الى السماء لتستقبل رذاذ المطر المنعش على بشرتها. عادت باتجاه سيارتها وقد اخذت الأرض توحل تحت قدميها.

دخلت السيارة وادارت محركها. علا الزئير وسط الصمت الطاغي، لكن العجلات دارت في مكانها دون ان تتحرك السيارة قيد انملة. اطفأت المحرك ثم جربت مرة اخرى وقد اعتراها القلق. قفزت السيارة خطوات الى الأمام قبل ان تغرق عجلاتها مرة اخرى وتراوح مكانها. اطفأت المحرك

وخرجت لتفحص العجلات، فوجدت الخلفيتين غارقتين تماماً في الوحل.

«يا لهذا الحظ السيء!» فبعد كل الذي حصل، يحدث هذا. لو انها انتبهت الى المكان قبل ان تتوقف فيه؟ لا فائدة الآن من الوقوف تحت المطر دون معنى... بحثت فانيسا حولها عن اغصان او احجار او ما شابه مما يمكن ان يوضع تحت العجلتين الخلفيتين لمساعدتها على الاقلاع، لكنها لم تجد شيئاً... على الأقل بالقرب منها. وادركت ان عليها العودة الى الغابة لاحضار بعض الاغصان اليابسة. فالمطر يزداد غزارة والظلام يشتد، وكلما اسرعت في الذهاب كان الأمر افضل. ومع انها لم ترحب بفكرة العودة الى الغابة المظلمة الرطبة، الا انها مضطرة لذلك.

توجهت عائدة الى الغابة بخطى مسرعة جداً. فالأمر ملح، والمطر لا يرحم. ركضت نحو اول شجرة وانحنت تجمع الأغصان اليابسة والجذوع المتساقطة... وفجأة سمعت صوت محرك سيارة يزداد وضوحاً كلما اقترب من الغابة. سيارة في هذا المكان؟ وللحظات، وقفت فانيسا في مكانها تصغي غير متأكدة من ان اذنيها لا تخونانها. ليس في الأمر خطأ فصوت المحرك اصبح واضحاً وقريباً. اسرعت نحو طرف الغابة ونظرت الى سيارتها غير البعيدة.. وهناك شاهدت سيارة كال غرين تقف الى جانبها.

تجمدت في مكانها، وخليط من العواطف المتضاربة يعصف بها. ماذا يفعل هنا؟ من الأكيد انه لم يأت صدفة الى هذا المكان بالتحديد؟ هل هو وحده؟ وشاهدته يخرج من سيارته ويتوجه الى سيارتها باحثاً عنها. على الأقل انه ليس مع الجميلة هيثر. فهي لا تحتمل رؤيتهما معاً. تذكرت ان حقيبة يدها في السيارة، ترى هل يفتحها ويعبث بها؟ سمعت فانيسا صوت اغلاق باب السيارة بقوة. لا فائدة من الوقوف هنا، بل عليها ان تخرج لملاقاته خاصة انها بحاجة الى مساعدة... لا شك انه سيقدم يد المساعدة طبعاً ممزوجة بالسخرية، ولكنها اعتادت منه على ذلك.

غادرت الغابة واخذت تعدو باتجاه السيارتين. كانت مستعدة لتحمل سخريته وتهكمه، ولكن لن تتحمل غضبه ابداً... رأته يستدير نحوها ويراقبها وهي تقترب. وما ان دنت منه حتى سمعت ما عكس لها طبيعة مزاجه.

قال بصوت غاضب آمر:

«ما تظنين نفسك فاعلة في هذا المكان؟».

جمدتها الصدمة في مكانها:

«ماذا؟».

«قلت: ما تظنين نفسك فاعلة هنا؟».

كانت عيناه مشتعلتين بالغضب... هذا الغضب الذي يؤثر كثيراً في فانيسا. فجأة انفجرت ضاحكة. لعل التوتر الزائد اطلق هذه الضحكة الهستيرية التي سرعان ما تحولت الى دموع منسكبة على وجنتيها. امسك كال بذراعيها وهزها بقوة:

«كفى!».

توقفت فجأة وكأنها اسيرة ذلك الصوت العميق الغاضب. ظل ممسكاً بها وهي تتساءل في نفسها عن ردة فعله لو قالت له: «انني احبك يا كال، فارجوك ان لا تمسني.. لأنك لو فعلت فإنني اريد ان اعانقك طويلاً». ووقفت تنظر اليه شاحبة الوجه، وقلقة من جراء الافكار التي تجول في ذهنها. فجأة ارتخت عضلات وجهه واطلق سراحها قائلاً بهدوء:

«حسناً اعتذر لأنني صرخت فيك. لكن اسمعيني للحظات. لقد اختفيت دون ان تتناولي شيئاً على العشاء، ذهبت في سيارتك الى مكان لا يعلمه الا الله... ولساعتين كاملتين لم يبد اي اثر لك...».

ساعتان! كانت تحس انها امضت عدة دقائق فقط في الغابة، لكن نظرة سريعة الى ساعة يدها اكدت لها صدق كلامه.

نظرت اليه وقالت:

«انا استطيع ان اذهب في نزهة مسائية عندما اريد». ثم اضافت بهدوء «لست ارى سبباً لكل هذا الغضب من قبلك!».

«الغضب؟ طبعاً غضبت. فقد اعتقدت انك هربت».

اتسعت حدقتاها بفعل الصدمة... اما هو فقد نظر اليها بابتسامة سخرية واضاف:

«لقد ذهبت وتحدثت الى لوري».

توقف قليلاً. وانتظرت فانيسا ممسكة بانفاسها لأنها تعرف ما سيحدث... ولا تستطيع فعل شيء لايقافه.. وتابع قائلاً:

«سألته عما اذا كان يعرف مكانك، اذ لا فائدة من البحث عنك اذا ما

كنت تقضين اوقاتك معه. وكان من الواضح ان سؤالي صدمه وجعله يضطرب».

استدارت فانيسا بعيداً عن نظراته الحادة، الا انه وضع يده على ذراعها بلطف وقال:

«لقد حصلت على الحقيقة منه بشكل او بآخر. انك تخططين للرحيل...».

وصاحت بالم مشوب بالغضب:

«مسكين لوري».

«لا تلوميه. فما كنت لأتركه دون ان يخبرني كل شيء...».

ردت بمرارة واضحة:

«لا شك عندي في ذلك ابداً».

«صحيح. ولكنه لم يخبرني عمن تكونين. لم تكن هناك ضرورة، فقد عرفت لوحدي».

شعرت وكأنها ستغيب عن الوعي. نظرت اليه بتساؤل:

«هل يعرف هو ايضاً؟».

لم يكن من الضروري ان تذكر اسم جدها، فالأمر واضح تماماً لهما معاً.

«لا احد غيري يعرف الحقيقة».

«كيف... كيف عرفت؟».

خرجت كلماتها بصعوبة بالغة. وفجأة بدا لها العالم مكاناً مرعباً لا مجال للهرب منه، واحست بالأرض تميد تحت قدميها وكان زلزالاً مدمراً ضربها. اما كال فقد كان هادئاً صامتاً ولا مبالياً. بدأت ترتجف رغماً عنها، فاضطر الى امساكها من ذراعها قائلاً:

«ادخلي الى سيارتي».

«كلا».

وحاولت ان تخلص ذراعها من يده، لكن قبضته الحديدية لم تمكنها من ذلك.

«بلى. لن نظل هنا تحت هذا المطر. فأنت مبللة تماماً. واذا ما اصبت بالانفلونزا فلن يكون بامكانك الرحيل الى اي مكان».

قادها نحو السيارة وفتح لها الباب، فألقت نفسها على المقعد منهوكة

القوى. استدار وجلس بالقرب منها، ثم ادار التدفئة الداخلية، فملأ الهواء الساخن جو السيارة الباردة. استندت فانيسا ظهرها الى مقعد السيارة واغمضت عينيها طلباً للراحة. قال شيئاً لم تسمعه لكنها احست بكومة اوراق بين يديها، فنظرت اليه وهو يقول:

«امسحي وجهك وشعرك. هيا افعلي ما اطلبه منك الآن».

لعل من الاسهل ان تنفذ اوامره بدلاً من الجدال اللامجدي.

قال وهو يراقبها:

«تسألينني كيف اكتشفت الحقيقة؟».

كانت قد بدأت تنشف شعرها الطويل. طلب منها ان تخلع معطفها المبلل لأن السيارة صارت دافئة. فعلت باذعان وانحنى لمساعدتها في تخليص ذراعيها ثم رمى المعطف على المقعد الخلفي.

تابع قائلاً:

«لقد خمنت ذلك. في البداية كنت غير مرتاح لشخصيتك. شعرت بوجود شيء غريب لم اعرف ما هو... الى ان كانت الليلة الماضية».

لم تنبس فانيسا ببنت شفة، تركته يروي القصة كما يشاء. لم تعد مهتمة بشيء ... فقد انتهى الأمر.

«رأيت الليلة الماضية صورة لابن اندرو ماكلين في بيت هيثر. فقد احضرت هيثر صندوقاً مليئاً بالبطاقات والخرائط والصور التي جمعتها منذ كانت طفلة... وبينما هي تقلب الاوراق شاهدت صورة لاندرو مع ابنه عندما كان طفلاً. لم اسأل عن سبب وجود هذه الصورة في الصندوق، بل اكتفيت باخفائها في سترتي». ثم اضاف مداعباً «انا ماهر جداً في النشل اذا اردت ذلك. هل تريدين رؤية الصورة؟».

«كلا».

«يجب ان تريها. الشبه واضح بينكما. استغرب فقط كيف ان جدك لم يلحظ ذلك».

استدارت اليه وقد طفح بها الكيل:

«حسناً. ماذا تريد ان تفعل الآن؟».

«انا؟». ضاقت عيناه وهو يقول «افعل؟ لا شيء».

كبتت في فمها صرخة عالية، ثم قالت بهدوء:

«لا تعطني هذا الجواب السخيف. الست مسروراً لاكتشافك هذا؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة مصممة على ان لا تضعف امامه:

«اليس هذا ما كنت تنتظره؟ حسناً، اذهب واخبره. فالأمر لم يعد يهمني ابداً».

قال بهدوء:

«اعتقد ان عليك اخباره بنفسك. اما الآن فساعود بك الى البيت قبل ان تصابي بالبرد».

«لكن سيارتي عالقة».

«اعرف ذلك».

ادار محرك السيارة وهو يقول: «انت غير قادرة على القيادة الآن. وساعود غداً مع لوري لاحضارها».

انفجرت في وجهه في محاولة لتأخير العودة:

«انه يكرهك».

بدا مندهشاً وهو يسأل:

«هل يكرهني فعلاً؟ هل اخبرك لماذا؟».

«اجل».

«ماذا قال؟».

«لن اخبرك. بل لن اناقش اي شيء معك».

«اذا اخبرك عن شقيقته فلا شك انه لوّن القصة قليلاً. لذلك سأحكي لك قصتي انا، وبعد ذلك انت حرة في تصديق الجانب الذي يعجبك. واؤكد لك بأنني غير مهتم بما ستصدقين».

اطفأ محرك السيارة وتابع قائلاً:

«القصة سهلة بحيث تبدو غير معقولة، لكنها الحقيقة كاملة. لقد اعجبت شقيقة لوري بي. صحيح انها فتاة لطيفة لكنني لم اعجب بها شخصياً، مما ادى الى غضبها مني وحقدها عليّ لكونها مدللة ومغرورة. لذلك أخبرتُ اخاها بأنني حاولت التحرش بها، فما كان منه الا ان تصدى لي في احدى الليالي وحاول ضربي. لم اعرف آنذاك غضبه، ولكني لسوء حظه اعرف الكثير من الجيدو... وهكذا واجهته وتغلبت عليه دون ان اؤذيه. فقط دافعت عن نفسي واجبرته على اخباري عن سبب غضبه. لم

يصدقني عندما اكدت له بأنني لم اقترب من اخته ابداً. ولا شك ان كبرياءه انجرح لأنني اكتشفت فيما بعد انه بطل هاو في الملاكمة في هذه المنطقة. وهذا ببساطة هو سبب عدم اعجابه بي. وبعد ذلك حزمت شقيقته حقائبها ورحلت الى اضواء المدينة في ابردين حيث يمكن ان تجد ما يناسبها.. وهنا تنتهي قصتي».

ادار محرك السيارة مجدداً، في حين ظلت فانيسا صامتة. لقد صدقت قصته. كما ان الحديث عن شقيقة لوري ساعدها للحظات على نسيان القصة الاساسية التي تدور حولها شخصياً. نظرت اليه وهو يقود السيارة في الممر الذي يوصل الى الطريق العام، فشعرت باضطراب شديد: كيف يمكن ان تحب وتكره الانسان ذاته في الوقت نفسه؟ يجب ان يكون الأمر مستحيلاً، لكنها تحبه وتكرهه في آن واحد. قبعت فانيسا في مقعدها منهكة، وألقت رأسها الى الخلف وهي تحس بجوع كبير. لقد وعدها كال بأنه لا ينوي اخبار احد عن حقيقة شخصيتها، وهي تميل الى تصديقه. وفجأة عادت الى ذهنها صورة الرسالة القابعة في غرفتها، وتذكرت ان عليها الرحيل في الصباح الباكر.

سألته بهدوء وتعاطف:

«هل يمكن ان تحضر سيارتي هذا المساء، فهي غير مقفلة؟».

«المنطقة آمنة هنا». ثم التفت اليها مبتسماً: «على كل سأحضرها الليلة، فلا تقلقي».

«شكراً لك».

ظل هناك شيء واحد، يجب ان تحصل على مفاتيح السيارة حتى تغادر البيت باكراً:

«وهل يمكن ان تترك لي المفاتيح في البهو عندما تعود، فقد اكون نائمة؟».

«كما ترغبين، فأنا لن اضيعها».

لم تشأ ان تقول له انها لم تفكر في هذا الأمر... وهكذا امضيا القسم الأخير من رحلة العودة صامتين.

اوقف كال السيارة امام الباب الأمامي، وفتح الباب لفانيسا قائلاً:

«هيا الى الداخل. سأطلب من السيدة بانكس ان تجهز لك العشاء بعد

ان ابلغ... السيد ماكلين بأنك عدت بسلام. سأقول له ان سيارتك علقت في الوحل وانك حاولت اخراجها بنفسك».

راقبته وهما يصعدان الى البهو الداخلي. لا شك انه عنى شيئاً عندما ختم كلامه بالقرب من السيارة قائلاً بنعومة واضحة:

«هذا كل ما سأقوله له.. اما الباقي فمن مسؤوليتك انت يا فانيسا».

ودخلا معاً. عبرت فانيسا القاعة متمهلة باتجاه السلالم. وكانت من التعب بحيث اضطرت للاستناد الى الجدار.

بذلت جهداً كبيراً في تبديل ملابسها والاستحمام واللجوء الى دفء السرير. لم تجرؤ على مباشرة حزم حقائبها خوفاً من ان تكشفها السيدة بانكس، لكنها ستفعل فور الانتهاء من عشائها... فهي بحاجة الى استجماع قوتها اذا ما ارادت الرحيل باكراً.

كان النعاس على وشك ان يغلبها عندما سمعت قرعاً على الباب. جلست في سريرها وقالت:

«ادخلي».

لم تكن السيدة بانكس، بل كان كال حاملاً صينية الطعام. فاجأها منظره فسحبت الغطاء الى كتفيها ونظرت اليه باستنفار وقلق.

«لا تضطربي. فأنا لا انظر اليك». ثم اضاف مبتسماً: «كادت السيدة بانكس ان تطردني من المطبخ لأنها مشغولة بصنع قالب من الكاتو، لذلك تبرعت باحضار الطعام بنفسي».

وضع الصينية على ركبتيها بعناية، ثم نظر اليها وكأنه يريد ان يقول شيئاً.. لكنه استدار واتجه نحو الباب. قال وهو يغادر الغرفة: «تصبحين على خير يا فانيسا».

«تصبح على خير ايضاً». ثم اضافت بعد ان اغلق الباب:

«وداعاً يا كال».

انتهى الأمر. لن تراه مرة اخرى ابداً. تنهدت بعمق... وبدأت في تناول طعامها.

تأخر النوم في المجيء الى عينيها... وعندما جاء، كان متقطعاً ومضطرباً ومليئاً بالاحلام والكوابيس المزعجة التي ايقظتها مرات عدة. نهضت من فراشها بعد ان ارعبها كابوس رأت نفسها فيه ضائعة في غابة

كثيفة الاشجار وشخص غريب يلاحقها. لم تستطع ان ترى ملامحه، فقط ظلت تسمع صوتاً يتردد باستمرار:

«فانيسا .. فانيسا».

كان جو الكابوس مرعباً وخانقاً بحيث وجدت صعوبة في العودة الى النوم، لذلك تسللت من سريرها واقتربت من الساعة لتعرف الوقت بدون ان تضيء النور خوفاً من ان يراها احد. كانت حوالى الخامسة صباحاً، نظرت الى السرير الدافىء وتمنت لو تعود اليه، لكنها تعرف ان النوم سيغلبها اذا فعلت وبالتالي ستفوتها فرصة الهرب. لذلك يجب ان تتحرك الآن.

كانت حقيبتاها معدتين ومخبأتين في الحمام بانتظار الرحيل. عليها فقط ان ترتدي ملابسها وتأخذ مفاتيح سيارتها... وتهرب. وطبعاً يجب ان لا تنسى ترك الرسالة على الصينية لتجدها السيدة باكنس في الصباح. وبهدوء بالغ ارتدت فستاناً تركته للرحلة عندما حزمت حقيبتها، ثم وضعت الرسالة على الصينية وقلبها يعتصر الماً من جراء احساس بالحزن العميق لأن الرسالة هي آخر خطوة في هذه الرحلة التعيسة.

تسللت على رؤوس اصابعها وهي تحمل الحقيبتين، وعندما وصلت الى البهو الداخلي وضعت احداهما على الأرض لأخذ مفاتيحها الموضوعة على الطاولة. لقد صدق كال في كلامه، فها هي المفاتيح موجودة في المكان المتفق عليه.

شهقت فانيسا بالدموع المكتومة وهي تفتح الباب. لم يحدث ابداً ان اغلق اهل البيت الباب الخارجي. وقد صدمتها هذه المسألة عندما وصلت الى دينستون هاوس، لكنها تشعر الآن بالارتياح لذلك. خرجت واغلقت الباب بهدوء، ثم حملت حقيبتها وسارت نحو موقف السيارات. في الخارج، صدمها الهواء البارد الرطب في حين كان الضباب يغطي العشب والاشجار والبيت كله. ارتجفت باضطراب وهي تلقي نظرة الوداع على البيت. فلقد كان نائماً مثل الناس الذين ينامون فيه.

استدارت وحثت خطاها نحو موقف السيارات. وخوفاً من ان يسمع احد وقع قدميها على حصى الممر، انتقلت للسير على العشب المجاور وظلت عليه حتى الامتار القليلة الاخيرة. لا شيء يتحرك في البيت، حتى

ستائر المطبخ ما زالت مغلقة والأضواء مطفأة.

وضعت حقيبتها في المقعد الأمامي واستدارت الى مقعد القيادة واغلقت الباب بهدوء ثم ادارت مفتاح المحرك. زأر المحرك عدة مرات دون ان يتحرك. وبقلق شديد كررت المحاولة مرة اخرى، ولكن شيئاً لم يتغير. هل البرودة هي السبب؟

همست لنفسها بغضب:

«اللعنة على هذا الحظ». هل كان من الضروري ان يحدث ذلك الآن؟ فتحت الغطاء وخرجت بهدوء لتتفحص المحرك. حاولت جهدها الا تصدر اية اصوات. رفعت الغطاء والقت نظرة شاملة دون ان تدري فعلاً عما تبحث، باستثناء حدس يقول لها ان شيئاً ما غير طبيعي. انها تعرف بعض المعلومات العامة عن المحرك، وقد اكدت لها نظرتها العابرة ان كل شيء في مكانه.

كانت على وشك ان تعيد الغطاء الى مكانه عندما لاحظت ان احدى مضخات الوقود غير محكمة الربط، ولما تفحصتها وجدت المضخة الاخرى غير محكمة ايضاً مما زاد في شكوكها. ولما رفعت غطاء توزيع الوقود وجدت ان المضخة نفسها غير موجودة. وعرفت على الفور المسؤول عن هذه اللعبة القذرة. انه كال بالتأكيد. فقد جرب هذه اللعبة بعد احدى السهرات على سبيل المزاح، عندما اخفى المضخة من سيارتها بحيث اضطرت لمرافقته في سيارته عائدين الى البيت. قبلت المزحة في المرة الأولى، وضحكت كثيراً عندما اخبرها كال الحقيقة على العشاء في اليوم التالي. اما الآن فالمسألة تختلف، ولا شيء فيها يثير الضحك.

اغلقت الغطاء بهدوء وعادت مسرعة الى البيت. وبما انه اخذ المضخة من سيارتها فستذهب اليه فوراً لاستعادتها منه، والارجح ان يكون محتفظاً بها في غرفته. لكن لماذا؟ قلبت هذا السؤال في ذهنها وهي تركض على العشب عائدة الى البيت الذي ودعته قبل قليل. كانت منزعجة جداً، وكلما اقتربت من البيت تحول حذرها الى غضب شديد. فتحت الباب بسرعة ثم اغلقته بشدة وركضت باتجاه السلالم. كانت تحس بموجة عارمة من الضيق في صدرها وبالنار تشتعل في عينيها. كيف يجرؤ هذا الرجل العنيد على التصرف معها بهذا الشكل؟

وصلت الى غرفة نومه . . . ترددت لحظات قبل ان تفتح الباب وتدخل عليه بقوة. كان كال غارقاً في نومه ولم يظهر منه سوى شعره الأسود الفاحم، في حين امتدت يده اليمنى خارج الغطاء الدافىء.

نظرت فانيسا اليه وهي تفكر في ما يجب ان تفعله الآن. ولم يستمر ترددها طويلاً، اذ انحنت اليه وهزته بعنف.

استيقظ على الفور وفتح عينيه واسعاً وهو ينظر اليها باستغراب شديد. ثم قال بصوت ما زال ناعساً:

«ما الأمر؟ ماذا جرى؟».

قالت بحزم:

«اين هي؟».

حاول ان يمسح عن وجهه اثار النعاس ثم جلس في مكانه ونظر الى الساعة صارخاً:

«يا الهي . . هل تعرفين كم الساعة الآن؟».

«اجل. اين المضخة التي اخذتها من سيارتي؟».

تنهد بعمق وعلى وجهه تعابير الاعتراف باللعبة:

«اذن هذه هي المسألة؟».

«اجل. هذه هي».

شدت قبضتيها بقوة وجاهدت لتمنع نفسها من ضربه، فالأمر لن يعود عليها بأية فائدة، ومن الأكيد انه سيرفض اعطاءها المضخة بعد ذلك. هدأت نفسها وقالت:

«ارجوك ان تعطيني اياها».

كان كال قد استيقظ تماماً الآن وجلس في السرير بشكل مريح. نظر اليها ثم هز رأسه وقال:

«لا . . .».

«ولماذا لا؟».

«لأنك ستهربين بعد ذلك».

قاطعته بغضب:

«وماذا يعنيك الأمر في اي حال؟».

«يعنيني كثيراً. فأنا لن اسمح لك بالهرب مثل . . .».

قاطعته مرة اخرى:

«اذهب الى الجحيم انت وافكارك».

ثم استدارت قليلاً في محاولة لكبت جماح غضبها المتزايد. وفجأة لمحت مفاتيح سيارة على الطاولة . . انها مفاتيح سيارة الجاكوار. . ودون ان تفكر بما تفعل اختطفت المفاتيح غير عابئة بأن ذلك قد يعتبر سرقة. ولماذا لا؟ فهو الذي اخطأ في الاساس. قالت:

«اذاً سآخذ سيارتك، فوداعاً، سأكتب لك في وقت لاحق لابلاغك عن المكان الذي ستجد فيه سيارتك».

استدارت وخرجت راكضة من الغرفة، ثم اسرعت في الممر نزولاً الى السلالم باتجاه القاعة وهي تدعو ربها ان لا ينهض كال ويلحقها. ركضت من الباب باتجاه الممر غير مهتمة بصوت الحصى المبعثرة تحت قدميها، فقد انتهى الأمر الآن.

اطلقت العنان لساقيها مدفوعة بالخوف واليأس. ليس هناك الكثير من الوقت. عليها اولاً ان تنقل حقيبتها من سيارتها الى الجاكوار. فسيارة كال قريبة من سيارتها والابواب كلها مشرعة، فقط عليها ان . . . وصلت الى الموقف واسرعت بفتح باب سيارتها وانحنت لترفع الحقيبتين عندما وقع عليها ظل شخص ما. رفعت عينيها لتجد كال واقفاً بالقرب منها وهو حافي القدمين.

تنفس بعمق وهو يقول:

«انك بالفعل قادرة على الهرب».

انتصبت واقفة وقد اسقطت من ذهنها كل شيء ما عدا الهرب من هذا الرجل. قالت وهي ترفع الحقيبتين:

«ابتعد عن طريقي فوراً».

«لا شك انك تمزحين. ضعي الحقيبتين وهيا الى البيت بهدوء. فقد انتهى زمن المرح والألعاب يا حبيبتي».

لم تنتبه الى الكلمة الأخيرة التي استعملها، فقد كان يشد على يديه القويتين اللتين انتزعتا الحقيبتين منها. وعند هذا الحد طفح الكيل معها واخذ صدرها يغلي كمرجل، وبلا وعي هجمت عليه بكلتا يديها، اما هو فقد ارخى الحقيبتين من يديه واطلق ضحكة مجلجلة ثم امسك بها وجمدها

في مكانها.

«لقد حذرتك مما سيحدث لك اذا ما اقدمت على ضربي».

ولدهشتها البالغة لف حولها ذراعيه وعانقها. وبدا لفانيسا ان الزمن قد توقف وان الكون كف عن الدوران وانهما لوحدهما في هذا العالم الواسع. وفجأة انتهى العناق وابتعدا عن بعضهما البعض... وسادت لغة العيون بينهما. كان وجه كال داكناً في ذلك المكان المعتم، اما وجه فانيسا فكان ساكناً وهادئاً. تكلم كال بهدوء خوفاً من ان يحطم السكينة المسيطرة، فقال:

«فانيسا... آه يا فانيسا. ماذا افعل بك الآن؟».

خرج صوتها مرتجفاً:

«دعني اذهب يا كال، دعني اذهب فوراً».

همس بنعومة فائقة:

«لا.. ليس الآن.. وليس فيما بعد.. هيا ادخلي الى السيارة فانت ترتجفين».

لم تستطع مقاومته هذه المرة. جلس الى جانبها وادار جهاز تدفئة السيارة ثم وضع ذراعه حول كتفيها:

«لا تتشاجري معي يا فانيسا. فأنا لا استطيع احتمال ذلك».

«لست افهم.. لست افهم ما تقصد». وتابعت وقلبها يخفق بشدة.

«نحن لا... انا اكرهك وانت تكرهني».

«لا. غير صحيح».

وتابع كلامه وهو يداعب خدها برفق:

«كنت قادرة دائماً على ازعاجي اكثر مما تتصورين... ولم ادرك السبب الا في الليلة التي اعتقدت انك هربت فيها... يا الله، لا يمكن ان تتصوري مشاعري عندما اخبرني لوري بهربك. واعتقدت فعلاً انك رحلت. وقتها عرفت... عرفت ماذا اشعر نحوك وعرفت ماذا تشعرين نحوي. فلا تحاولي النفي الآن».

«انت مجرد حيوان مخادع».

خرج صوتها ضعيفاً هامساً. لكنه وصل الى سمع كال، فضحك طويلاً.

«حيوان مخادع؟ يعجبني هذا الكلام. وفي الحقيقة انا لا ابالي بالأوصاف التي تنعتيني بها. لقد رأيت كل شيء في عينيك الليلة الماضية. ولا يمكنك اخفاء الواقع يا فانيسا».

ازدادت خفقات قلبها وهي تنظر مباشرة في عينيه. وعندما رأت مشاعر الحب فيهما مدت يدها تلامس وجهه القاسي.

«آه يا كال. ارجوك ساعدني. انا هاربة من...».

الاعتراف قاس جداً، ولكن زمن الأكاذيب قد انتهى. لم تعد قادرة على اختلاق القصص، على الأقل ليس الآن وليس معه بالتحديد. تابعت كلامها قائلة:

«جئت الى هنا لاعرف جدي على حقيقته. فبعد الذي اخبرني به والدي كرهت جدي، وانت لانني عرفت انه يبحث عن حفيدته. وكنت سأجعله يحبني ثم... ثم ارحل واتركه وحيداً».

«لا ترحلي. لست مضطرة».

همست بحدة:

«بلى، يجب ان ارحل. لانني اكره نفسي يجب ان ارحل. وانت ستكرهني ايضاً بعد ان انتهي من رواية قصتي. لقد التقيت جدي وبدأت احبه...».

قطعت كلامها فجأة واغرقت رأسها بين كفيها عندما داهمتها الدموع المتهمرة. احست بيد كال تمتد الى رقبتها وتلامسها بلطف ومحبة. لم تعد تستطيع الاحتمال، وبحركة غريزية استدارت ودفنت رأسها في صدره. في حين احتضنها هو بذراعيه وراح يهدهدها كطفل صغير.

«لا تبكي يا حبيبتي. ارجوك لا تبكي».

«لا استطيع.. لا استطيع».

«اسمعي يا فانيسا». ولكنه قبل ان يكمل اخذ نفساً عميقاً وصمت للحظات بحيث توقفت فانيسا عن النحيب:

«اسمعي. انه بحاجة اليك. الا تلاحظين ذلك. انه بحاجة ماسة الى وجودك. وهربك من حياته عمل قاس للغاية. انت ستظلين هنا حتى لو اضطررت الى استعمال القوة. ستبقين هنا وسنرى جدك سوياً ونخبره الحقيقة».

ردت بصوت تخنقه العبرات:

«لا».

«بل. انا احبك ايتها المجنونة ولن اتركك ترحلين الآن».

فاجأتها العبارة، فأبعدت رأسها عن صدره وقالت:

«ماذا؟».

«قلت انني احبك. فهل انت عمياء بحيث لا ترين مشاعر الحب في عيني؟».

«انت..! ولكن ماذا عن هيثر؟».

«هيثر؟ لقد حولتني الى مجنون في غضون ستة اشهر فقط. فهي لا تهتم بشيء الا بنفسها وبمظهرها الخارجي. انها تصلح للقاءات موسمية فقط، اما انت يا جميلتي فتستطيعين تجاوزها في كل شيء حتى بدون ان تحاولي».

ولم تحر فانيسا جواباً بالرغم من عشرات الافكار التي تراودها الآن.

و«هكذا...» تابع كلامه وهو يحكم ذراعه حول كتفيها وكأنه يطمئن الى انها لن تهرب مرة اخرى «انت لن ترحلي عني بعد اليوم، الا اذا اردت ان الحق بك اينما كنت».

«لا. عرفت انني احبك مساء امس على العشاء».

ابتسمت وهي تتذكر المناسبة واضافت تقول:

«وبالتحديد عندما تناولنا الحساء. نظرت اليك وقتها و... صعقني الشعور بشكل مفاجئ».

«يا الهي. هل هذا هو السبب في انقطاع شهيتك عن الأكل؟» تابع ضاحكاً «اهذا هو التأثير الذي أتركه عليك؟».

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

«اعتقد ذلك» ثم اضافت بنعومة «آه يا كال. لماذا حدث هذا، وكيف؟».

لم يكن بحاجة لسؤالها عما تقصد:

«لأن بعض الأشياء، يا صغيرتي المجنونة، تحدث هكذا. هل تذكرين يوم دخلت المكتبة وعرفت ان لوري عانقك؟ حسناً، لقد جاهدت نفسي كثيراً كي لا اهجم عليه. لم استطع ان افهم سبب غضبي... لعلّي كنت غبياً؟ ثم اخذ هذا الشعور ينمو ويزداد وانا احاول طرده لانني كنت اعرف

انك مزورة اذا صح التعبير. كان الشك يكبر يوماً بعد يوم دون ان افهم السبب، وكانت تنمو معه رغبتي في احتضانك والبقاء الى جانبك. والحقيقة انني كدت افعل ذلك في احد دروس الجيدو. وكم كنت وقتها بحاجة الى السيطرة على النفس التي تبنيها رياضة الجيدو».

سألت بنعومة:

«لقد كنت قاسية معك، اليس كذلك؟».

«كيف يمكن ان اوافق على ذلك؟ اعتقد انني كنت فظاً معك يا عزيزتي. على كل انتهى الأمر، اعني اننا نعرف حقيقة مشاعرنا. آه ايتها الحبيبة فانيسا. كم انا سعيد لأنني اخفيت المضخة من سيارتك!».

«صحيح. على فكرة اين وضعتها؟».

سألته بلهجة آمرة، لكن عينيها لم تلتمعا بالغضب هذه المرة.

«انها مخبأة في صندوق صغير موضوع في مكان ما هنا بحيث لا يمكنك اكتشافه مهما بحثت. فقد انتابني احساس بأنك ستحاولين الهرب، وانا لم اتوقع ان تقتحمي غرفتي. يا لك من امرأة عصبية جداً!».

همست بحياء:

«انا آسفة يا حبيبي».

«يجب ان تغيري تصرفاتك، فأنا لا اقبل مثل هذا الموقف من زوجتي».

«ماذا؟».

«هل هذا كل ما عندك لقوله؟».

«اجل... وحتى استعيد انفاسي المتقطعة. لست متأكدة مما سمعت!».

نظر الى ساعته وقال:

«تعالي يا حبيبتي. انها السادسة تقريباً. ما رأيك لو نتسلل الى المطبخ ونرتشف بعض القهوة المنعشة، فالسيدة بانكس لن تستيقظ قبل السابعة؟».

«لا بأس».

ولكنها ارادت ان تضيف شيئاً اخر، الآن وقبل ان يغادرا السيارة.

«كال...».

«نعم!».

«ارغب برؤية جدي على انفراد. ارجوك، فأنا اريد ابلاغه الأمر بنفسي».

«هل انت متأكدة».

«نعم. يجب ان اخبره بنفسي. اظنك تفهم الوضع!».

ابتسم لها وهما يسيران عائدين الى البيت. كانت عيناه ووجهه وكل ملامحه تنطق بالحب العميق:

«انا افهم موقفك تماماً يا حبيبتي. لكنني سوف انتظرك. لا تضطربي، يكفي ان تخبريه بطريقتك الجميلة الطيبة، وسيفهم على الفور».

«اتمنى ذلك».

اغلقت عينيها برهة ثم تابعت:

«لقد تركت له رسالة مع ان الكتابة كانت صعبة. اما الآن، فأنا سعيدة لأنك منعتني من الرحيل. . . لا يمكن ان تتصور كم انا سعيدة!».

وضع ذراعه على كتفيها بحنان، ثم اشار الى الأفق قائلاً:

«هل ترين تلك التلة البعيدة؟».

نظرت فانيسا الى البعيد فشاهدت تلة كبيرة تكسوها الثلوج. اما هو فتابع يقول:

«سأظل احبك ما دامت الثلوج موجودة على قمة التلة».

ابتسمت بدلال وقالت:

«انها لا تذوب ابداً. . . انها هناك الى الأبد».

«اجل. . ان حبي لا ينتهي ابداً. .

وضمّها بين ذراعيه وغابا في عناق طويل.